
دار المنظومة
DAR ALMANDUMAH
الرواد في قواعد المعلومات العربية

الكنزيون في مغرب أواخر العصر الوسيط

محمد ياسر الهلالي[*]

يعود اهتمامي بموضوع الكنزيين في تاريخ المغرب عامة وفي أواخر العصر الوسيط خاصة إلى سنوات خلت. والمقصود بالكنزيين أولئك الذين يبحثون عن الكنوز والمعادن النفيسة لا الذين يكنزون الأموال. وحينما عزمت على تناول هذا الموضوع بالبحث، واستئناسا بما نشرته الصّحافة المغربية في هذا الصدد، بحكم إطلاعي اليومي على مواد أعدادها، لاحظت أن ظاهرة البحث عن الكنوز والكنزيين ما تزال حاضرة عند مغاربة اليوم، وهو ما تؤكده العديد من الأخبار والمقالات والتحريات التي وردت في جرائد مختلفة[1]. واللافت

*. أود أن أتقدم بالشكر الجزيل إلى الباحث عبد العالي ابن احمد الذي أمدني ببعض النصوص التاريخية التي ساعدتني في كتابة هذا الموضوع. والشكر موصول إلى الأستاذ محمد استيتو على مراجعته الدقيقة لهذا البحث.

1. أرتب المقالات الصحفية حسب تاريخ صدورها : سميرة فرزاز، "ممارسات خرافية ضحيتها أطفال أبرياء، الأطفال "الزهريون" ضحايا مشعوذون يختطفونهم اسخراج "كنوز" مدفونة"، **الأحداث المغربية**، العدد 2056، السبت 11 شتنبر 2004 م، ص، 9. "لماذا يتوجه اهتمام المشعوذين نحو الأطفال "الزهريين""، **الأحداث المغربية**، العدد 2056، السبت 11 شتنبر 2004 م، ص، 9. حسن عين الحياة، "استخراج الكنوز حقيقة أم وهم"، **أسبوعية المشعل**، العدد 96، من 01 إلى 07 دجنبر 2006 م، ص، 18. لحسن الصفريوي، "خبايا وأسرار==

للانتباه أن معظم ما ورد على صفحات تلك المنابر الإعلامية حول هذا الموضوع إنما كان للإخبار عن عمليات نصب واحتيال، بل وأحيانا بحوادث قتل تمت بذريعة البحث عن الكنوز كما في هاتين القضيتين اللتين أسوقهما على سبيل الاستئناس لا غير.

== استخراج الكنوز بالمغرب"، **النهار المغربية**، العدد 791، الجمعة 15 دجنبر 2006 م، ص، 5. ميلود الشلح، "الباحثون عن الكنز"، المساء، الجزء الأول، العدد 82، السبت - الأحد 23-24/ 12/ 2006 م، ص، 15. الجزء الثاني، العدد 83، الاثنين 25/ 12/ 2006 م، ص، 15. الجزء الثالث، العدد 84، الثلاثاء 26/ 12/ 2006 م، ص، 15. الجزء الرابع، العدد 85، الأربعاء 27/ 12/ 2006 م، ص، 15. محمد الزوهري، "بدعوى استخراج الكنوز محتالون يوظفون طفلا "زوهري العينين" للنصب على ضحاياهم"، **الأحداث المغربية**، العدد 2907، الجمعة 19 يناير 2007 م، ص، 10. أحمد مازوز، "اشتوكة آيت باها هلع من اختطاف الأطفال لاستخدامهم في الشعوذة"، **يومية الناس**، العدد 149، السبت 17 مارس 2007 م، ص، 1. ج. عدناني ول. وريغ، "في سياق الإساءة للموتى والاعتداء على المواقع التاريخية بالمغرب: باحثون عن الكنوز يخربون ضريح أبي الحسن بموقع شالة التاريخي"، **الأحداث المغربية**، العدد 3002، الثلاثاء 24 أبريل 2007 م، ص، 5. م.ن، "كنز سيدي بلعباس الذي أسقط أفراد عصابة مختصة في النصب والاحتيال، والمحكمة تدينهم بعشر سنوات سجنا"، **الاتحاد الاشتراكي**، العدد 8553، الأربعاء 09 ماي 2007 م، ص، 5. أحمد بيضي، "من أجل استخراج كنوز مفترضة... مشعوذون يحولون أجساد الأطفال إلى قرابين للجن"، **نجمة**، العدد الثالث، غشت 2007 م، ص، 40-41. أبو نعمة، "قضية نصب مثيرة بين البيضاء وآسفي، كنز مدفون ومعه ضاعت 20 مليون"، **بيان اليوم**، العدد 5390، الثلاثاء 11/ 03/ 2008 م، ص، 4. أحمد ذو الرشاد، "فقهاء فوق العادة: البحث عن الكنز يقود فقيها إلى السجن"، **الصباح**، العدد 2571، الثلاثاء 15/ 07/ 2008 م، ص، 7. عادل تشيكيطو، "من الطمع ما قتل: فقيه ورجال درك أعضاء عصابة "الكنز المدفون""، **العلم**، الثلاثاء 01/ 07/ 2008 م، ص، 9. "اختطاف طفل مغربي لاستخدامه في استخراج الكنز"، *www.hespress.com*، 24 يناير 2009. عبد الرحمان مسحت، "10 أشهر حبسا نافذا لنصاب يدعي استخراج الكنوز"، **الصحراء المغربية**، العدد 7318، الثلاثاء 14/ 07/ 2009، ص، 8. النهار المغربية، العدد 1587، السبت 18 يوليوز، 2009، ص، 8. "مشعوذ حفر 10 متار داخل شقة للسكن الاجتماعي واستعان بفتاة لاستخراج الذهب والياقوت"، **الصباح**، العدد 2896، السبت 18 يوليوز، 2009، ص، 1. المصطفى صفر، "طقوس استخراج كنز أزهقت روح أب وعرضت ابنته إلى ممارسات شاذة"، **الصباح**، العدد 2898، 4 غشت 2009، ص، 1-2. قلعة السراغنة، "البحث عن الكنوز يطال حرمات القبور داخل أحد الأضرحة بقلعة السراغنة"، ==

ملخص القضية الأولى : قصد "فقيهان" من سوس أحد التجار من مدينة تطوان من الذين يعتقدون اعتقادا جازما في قدرات "الفقهاء" على "كشف الكنوز"، وأوهماه بأن لديه كنزا مدفونا في أرضه الفلاحية ببني عروس، وأنهما يتوفران على "تقييدة" بهذا الشأن. ولما لم يسفر التنقيب عن أي شيء، أوهماه مرة أخرى بوجود كنز أفضل من الأول في ضواحي مدينة مكناس، قرب أحد الأضرحة المهجورة، يقدر بأكثر من مليار سنتيم، وأن عليه مساعدتهما للحصول عليه، وتمكينه من حصة منه، فانساق معهما. ولما استجاب لهما، دبرا له كمينا في المكان المزعوم للكنز، وكان بجوار أحد الأضرحة المهجورة خارج المدينة. وبعد عملية محبوكة، معدة مسبقا، تم الشروع في الحفر والتنقيب مع تعازيم وقراءة القرآن، تم «العثور» على صندوق، حينئذ «بوغت» الكنزيون بظهور عدة أشخاص، مسلحين بالعصي والسكاكين، ادعوا أنهم حماة الضريح، وبأن الكنز الموجود يخصهم، وهددوهم بالقتل. وبما أن قيمة الكنز كانت كبيرة، أقنع "الفقيهان" التاجر بمفاوضة الحماة المزعومين

= **هسبريس**، www.hespress.com، 05 شتنبر 2009. "سنة حبسا لمتهم بالنصب والشعوذة بتازة القضية مرتبطة باستخراج الكنوز والظنين حاول إرشاء السلطة بمبلغ 40 ألف درهم"، **الصباح**، العدد 3173، 23 يونيو 2010، ص، 10. سعيد بلقاس، "رحلة البحث عن الكنوز في ضواحي "أولاد تيمة" يتخصص فيها "فقهاء" وسماسرة والعديد من الطامعين في الثراء السريع"، **المساء**، العدد 1199، الخميس 28 يوليوز 2010، ص، 12. عبد الرحمان مسحت، "سيناريو اعتقال نصاب ادعى إخراج الكنوز"، **الصحراء المغربية**، العدد 6749، السبت 03 غشت 2010 م، ص، 3. "ملف : "حفارو الكنوز" في المغرب.. بين الحقيقة والأسطورة"، **المساء**، العدد 1207، السبت - الأحد 08-07/ 08/ 2010 م، ص، 20-23. المهدي الكراوي، "صاحبة رخصة البحث عن كنز آسفي تاجرة والموضوع دبر في سرية داخل دهاليز وزارة الثقافة"، **المساء**، العدد 1247، الجمعة 24/ 09/ 2010 م، ص، 1-2.

تهتم الصحافة خارج المغرب بنشر أعمال الكنزيين في بلدان أخرى، وعلى سبيل المقارنة، ما نشرته جريدة **القدس العربي** في موقعها الإلكتروني (HYPERLINK "http://www.alquds.co.uk"www.alquds.co.uk) بتاريخ 20 غشت 2007 تحت عنوان "صدّق ان الجان سيخرج الذهب من باطن الأرض: عصابة أردنية تتظاهر بأعمال السحر وتستولي علي مليون دولار من ضحيتها".

بإعطائهم حصة من الكنز، حيث طلب المسلحون مائتي مليون. وبعد التفاوض، استقر الأمر على مائة مليون، فاتصل التاجر بابنه في تطوان وأمره بإحضار المبلغ المطلوب، وكذلك حصل. وبعد توصل المسلحين بالمال، اختفوا رفقة "الفقيهين" عن الأنظار، ليتأكد بعدها التاجر أنه كان ضحية عملية نصب مدبرة. وأصدرت المحكمة حكمها النهائي بعد الاستئناف بمعاقبة أحد المتهمين، الذي تم القبض عليه، بالحبس سنتين نافذتين، وأداء غرامة قيمتها 60 مليون سنتيم[2] بعد أن اعترف بكل ما نسب إليه، وأن العملية كانت من نسج خيال شريكه.

ملخص القضية الثانية : عرضت أحداث هذه القضية، المتعلقة أيضا باستخراج الكنوز، على أنظار إحدى المحاكم بمكناس[3]، لكنها هذه المرة كانت بشعة، لأنها صوحبت بعملية قتل أحد الأطفال "الزوهريين"[4] الذين يوظفهم بعض الكنزيين في عملية استخراج الكنوز. وعثر على جثة الطفل مشوهة، منزوعة الفك السُّفلي، واتهم عم الطفل في القضية، إلا أنه وأمام غياب أدلة مادية، سجلت القضية ضد مجهول.

---

2. راجع حكم محكمة الاستئناف بمكناس، ملف جنحي عدد : 6131/05، قرار : 9417، بتاريخ 26/ 12/ 2005.

أشكر الصديق الأستاذ توفيق أبا محمد عضو هيأة المحامين في مكناس الذي أمدني بهذه القضية التي رافع فيها.

3. لم أستطع إلى حدود الآن التوصل برقمها في المحكمة.

4. "الزوهري" في اللسان الدارج للمغاربة، هو إنسان ذكر أو أنثى لا يستطيع الرؤية من بعيد، وراحة يديه مفلوقتان (خط يقطع راحة يده عرضا) وكذلك لسانه، وهذه العلامات تدل على أن من يتوفر عليها هو من أبناء الجان تم استبداله عند مولده، بأحد أبناء الآداميين ! وبهذه الصفة، فالزوهري لا يخاف من أذى الجن أمثاله إن هو اقترب من الكنز !

مصطفى واعراب، **المعتقدات السحرية في المغرب**، منشورات الأحداث المغربية كتاب الشهر رقم : 5، دار النشر المغربية، دون مكان النشر، 2003 م، ص، 237.

وللإشارة، فإن المحاكم المغربية يعرض على أنظارها من وقت لآخر قضايا مماثلة يمكن أن تشكل في المستقبل مصدرا للمؤرخ في هذا الموضوع، ومنها قضيتين واردتا في جريدتين[5].

ومعلوم أن المغاربة يهودا كانوا أم مسلمين، كانوا، من قديم إلى اليوم، يتمتعون بـ« سمعة شهرة » مشهود لهم بها في التنقيب عن الكنوز تتجاوز المجال الجغرافي المغربي، إذ يكفي القيام بتصفحٌ سريع لبعض المواقع الإلكترونية على الشبكة العنكبوتية للتأكد من ذلك، حيث يمكن الوقوف على دورهم المباشر أو غير المباشر (عبر بعض أنواع البخور المغربية) في البحث عن الدفائن النفيسة في عدة دول عربية خاصة، كمصر وفلسطين المحتلة وغيرهما.

وبالعودة إلى مرحلة هذا البحث، لا بأس من التذكير بأن الباحثين في تاريخ المغرب خلال العصر الوسيط، لطالما اشتكوا من شح المادة المصدرية، ووقوفها حائلا دون الوصول إلى نتائج مرضية في البحث، لكن ثمة مواضيع لا تميط عبارة "شح المصادر" عن المعنى المراد تبليغه، فهناك أحيانا شبه عقم للمادة المصدرية، وهذا حال موضوع الكنزيين خلال الحقبة التاريخية

---

5. يهمنا أن نشير إلى أن المشرع المغربي منع منعا كليا أعمال الحفر غير المرخص بها (الفصل 45 من القانون 22.80)، وفرض عقوبات على من قام بذلك، بالمصادرة الإجبارية للمعثور عليه، وبغرامة تعادل عشر مرات قيمته، وبغرامة من 2.000 إلى 20.000 درهما، وإذا أعاد المخالف للقانون فعله، يعاقب بغرامة لا تقل عن ضعف الغرامة المحكوم بها عليه في السابق من غير أن تتجاوز 40.000 درهم، وفي جميع الأحوال لا تصل العقوبة إلى الإكراه البدني، بل ويستفيد المخالف للقانون من إبرام المصالحة مع الإدارة (السلطة الحكومية المكلة بالشؤون الثقافية أو وزير الداخلية أو الوزير المكلف بإعداد التراب الوطني أو وزير الفلاحة والإصلاح الزراعي أو الوزير المكلف بالتجهيز) إن هي ارتأت مصلحة في ذلك حسب ما يخوله لها القانون. ويسقط إجراء المصالحة الدعوى العمومية، والدعوى المدنية المرفوعة ضد المخالف وشركائه.
نور الدين قشي، "أعمال الحفر والاكتشاف دون ترخيص أو ظاهرة التنقيب عن الكنوز"، **المجلة المغربية للإدارة المحلية والتنمية** (Revue marocaine d'administration locale et de développement)، العدد 22، 1998 م، 83 ـ 85.

المشار إليها. فهذا الموضوع ليس مسكوتا عنه فقط، وإنما هو بطبيعته ملفوف بالسرية، يكفي دليلا أن عملية الإعداد أو التنقيب والحفر والاستفادة من الكنز واستغلاله - إن عثر عليه فعلا - تجري في تكتم شديد، ولا تتم في العادة إلا تحت جنح الظلام.

لم يكن الاقتصار على أواخر العصر الوسيط كحقبة زمنية للموضوع اختيارا، إذ كان بودي تناول الكنزيين في مدى زمني أطول لمحاولة تغطية العقم المصدري. غير أن الاطلاع على بعض الأطروحات التي تناولت المجتمع المغربي خلال العصرين المرابطي[6] والموحدي[7]، لم تشر البتة إلى الكنزيين. فهل يعد هذا تقصيرا من الباحثين ؟ أم أن الأمر يندرج في العقم المشار إليه ؟ شخصيا أستبعد الطرح الأول، وأرجح الثاني، وأميل إليه.

إن مصادر البحث في موضوع الكنزيين في مغرب أواخر العصر الوسيط قليلة، موزعة بين كتب الجغرافيا[8]، وصنف الأوفاق والعلوم الخفية (طلاسم،

---

6. إبراهيم بوتشيش القادري، **الحياة الاجتماعية في المغرب والأندلس خلال عصر المرابطين**، 3 أجزاء، أطروحة لنيل دكتوراه الدولة في التاريخ الإسلامي، جامعة مولاي إسماعيل، كلية الآداب والعلوم الإنسانية، مكناس، السنة الجامعية، 1990 ـ 1991 م. (مرقونة).

7. الحسين بولقطيب، **الدولة الموحدية ومجال المغرب الأقصى**، أطروحة لنيل دكتوراه الدولة في التاريخ، جامعة شعيب الدكالي، كلية الآداب والعلوم الإنسانية، الجديدة، السنة الجامعية، 1998 ـ 1999 م. (مرقونة).

أحمد المحمودي، **عامة المغرب الأقصى في العصر الموحدي**، أطروحة لنيل دكتوراه الدولة في التاريخ الإسلامي، جامعة مولاي إسماعيل، كلية الآداب والعلوم الإنسانية، مكناس، السنة الجامعية، 1999 ـ 2000 م. (مرقونة).

8. الحسن بن محمد الوزان الفاسي المعروف بليون الأفريقي، **وصف إفريقيا**، جزءان، ترجمة عن الفرنسية، محمد خجي ومحمد الأخضر، دار الغرب الإسلامي، بيروت، الطبعة الثانية، 1983 م.

كربخال مارمول، **إفريقيا**، 3 أجزاء، ترجمة عن الفرنسية، محمد حجي، محمد زنيبر، محمد الأخضر، أحمد التوفيق، وأحمد بن جلون، الجمعية المغربية للتأليف والترجمة والنشر، مكتبة المعارف للنشر والتوزيع، الرباط، الجزء الأول، 1404 هـ/ 1984 م. الجزء الثاني والثالث 1408 ـ 1409 هـ/ 1988 ـ 1989 م.

سحر، جداول)[9]، والمظان ذات الطبيعة الفقهية - الصوفية[10] معيارية - أخلاقية أكثر منها إخبارية. وهذه المصادر الأخيرة، غالبا ما قرنت الحديث عن البحث عن الكنوز بالاشتغال بالكيمياء، واعتبرتهما معا من الأعمال المذمومة وغير الجائزة. لذا، لا يستبعد احتواء كتب الكيمياء[11] - التي لم يتيسر الاطلاع عليها - على معلومات حول الكنزيين.

أما الكتابات المعاصرة في الموضوع، عربية كانت أم أجنبية، فنادرة جدا[12] هي أيضا، وتكاد ترتبط بموضوع السحر[13]. وحتى هذا الموضوع الأخير لا تتوفر حوله كتابة عربية مغربية ذات بال سوى بضع مقالات وبضع كتب، بخلاف ما كتب بالفرنسية والأنجليزية ما بين نهايات القرن التاسع عشر

---

9. أبو العباس أحمد بن علي البوني (ت. 622 هـ)، **منبع أصول الحكمة**، مؤسسة النور للمطبوعات، بيروت، 1421 هـ/ 2000 م. ابن الحاج التلمساني المغربي، **شموس الأنوار وكنوز الأسرار الكبرى**، المكتبة الفلكية، بيروت، دون سنة النشر.

10. أبو عبد الله محمد بن محمد بن محمد بن الحاج العبدري، **المدخل إلى تنمية الأعمال بتحسين النيات والتنبيه على بعض البدع والعوائد التي انحلت وبيان شناعتها وقبحها**، الجزء الثاني، طبع على نفقة مصطفى أفندي فهمي الكتبي، وشريكه، المطبعة العامرة الشريفة، دون كان الطبع، 1320 هـ.

أبو العباس أحمد بن أحمد بن محمد بن عيسى زروق البرنسي الفاسي، **قواعد التصوف**، صححه ونقحه، محمد زهري النجار، راجعه، علي معبد فرغلي، دار الجيل، بيروت، الطبعة الأولى، 1412 هـ/ 1992 م.

11. عن هذه الكتب، يراجع : محمد العربي الخطابي، **فهارس الخزانة الحسنية بالقصر الملكي بالرباط**، المجلد الخامس، الفهرس الوصفي لمخطوطات الكيمياء وتعبير الرؤيا والعلوم الخفية، الرباط، مطبعة النجاح الجديدة، الدار البيضاء، 1406 هـ/ 1986 م.

12. أحمد سراج، "ظاهرة الأركيولوجيا السرية بالمغرب"، النشرة الأثرية المغربية (*Bulletin d'archéologie marocaine*)، العدد 19. 2002 م. (ص، 3-20).

نور الدين قشي، **أعمال الحفر والاكتشاف دون ترخيص أو ظاهرة التنقيب عن الكنوز**، ص، 79-86.

13. Edmond Doutté, *La société musulmane du Maghrib : magie et religion dans l'Afrique du nord*, J. Maisonneuve, P. Geuthner S.A, Paris, 1984, pp. 266-268.

إلى منتصف القرن العشرين مرورا بفترة الحماية الفرنسية للمغرب، وهي أعمال تختلف من حيث قيمتها العلمية بين الرزينة والمتحاملة ذات الأفكار المسبقة[14].

لا بأس في هذا التقديم أيضا، من التمييز بين العثور على الكنوز صدفة، والبحث عن كنز تركه أحد أفراد العائلة دون الاهتداء إلى مكانه، وبين التعاطي للبحث عن الكنوز مع سبق الإصرار والترصد. هذه العملية الأخيرة المقصودة، المعد لها سلفا، هي التي ستكون موضوع الاهتمام والبحث.

فمن الصنف الأول غير المعني بالدراسة في موضوع الكنزيين، ما ذكره أبو حامد الغرناطي (473 هـ - 565 هـ) بالقول: «كان لنا في المغرب قرية فيها دور وبساتين، وكان فيها قراح على قارعة الطريق بقرب الدار التي كنا نسكنها زمان الربيع والصيف والخريف. وكان في القراح قطعة بيضاء بقدر خمسة أذرع في ذراعين كأنها جص، كنا نسميها الكنز، وذلك اسم شائع لذلك القراح منذ [أن] ملكه المسلمون. كنا نقول: هذا قراح الكنز. فلما كان قبل الخمسمائة عام، جاءت الثلوج في تلك الشتوية كثيرة جدا، فقالوا إنه نزلت هناك قافلة بالليل، واحتفروا ذلك الموضع، فوجدوا صندوقا من رخام طوله خمسة أذرع في عرض ذراعين، عليه لوح رخام، ففتحوه، وأخذوا كل ما كان فيه. ولما كان زمان الربيع، ظهرت تلك الحفريات لما ذابت الثلوج، فبقينا في حسرة، ولا يشك أنه كان فيه مال، والله أعلم. ولكن لكل دفين صاحب لا يأخذه سواه»[15].

هناك أيضا ما جاء عند ابن سعيد المغربي في ترجمته لكاتب الخليفة الموحدي عبد الواحد الرشيد، الذي عثر على كنز عندما كان بصدد القيام بتجديد جزء من داره بمراكش، فرفع أحد الواشين خبره إلى الخليفة المذكور،

---

14. مصطفى واعراب، **المعتقدات السحرية في المغرب**، ص، 9.

15. أبو حامد عبد الرحيم بن سليمان بن ربيع القيسي الغرناطي، **تحفة الألباب ونخبة الإعجاب**، تحقيق إسماعيل العربي، منشورات دار الآفاق الجديدة، المغرب، 1993 م، ص، 106-107.

فكان جوابه : «هذا شيء أعطاه الله لا سبيل أن يعاد علينا فيه كلمة»[16]. ومنه كذلك، أن قوما من هرغة سوس، وجدوا «دفينة كذلك ببلادهم، كانوا يبنون، فيها من كل نوع من ذهب وفضة وأسلحة، ويقال أنها من مال الإمام المهدي الذي عندنا في مدينة تينمل بوادي نفيس»[17].

وجاء في ترجمة أبي محمد مع الله بن يحيى بن يجاتن الزناتي من أهل نظير من حومة تادلا (ت. 536 هـ)، «حدثوا عنه أنه ظهر له كنز قديم في جنان له»[18].

لعل هذا النوع من الكنوز هو ما يعرف بالركاز، وعرفه الماوردي بأنه «كل مال وجد مدفونا من ضرب الجاهلية في موات أو طريق سابل»[19]. وسار أبو الحسن علي بن يوسف الحكيم في الاتجاه نفسه، وعرفه بأنه «دَفْنٌ الجاهلية

---

16. أبو الحسن علي بن موسى بن عبد الملك بن سعيد المغربي، **اختصار القدح المحلى في التاريخ المحلى**، إختصره أبو عبد الله محمد بن عبد الله بن خليل، تحقيق إبراهيم الإبياري، دار الكتاب المصري، القاهرة، بيروت، الطبعة الثانية، 1980 م، ص، 127.

17. عبد الله بن إبراهيم التاسافتي، **رحلة الوافد لحظات من تاريخ أدرارن درن (أطلس مراكش) وسوس في القرن 12 الهجري/ 18 الميلادي**، تحقيق علي صدقي أزيكو، منشورات كلية الآداب والعلوم الإنسانية بالقنيطرة، جامعة ابن طفيل، سلسلة نصوص ووثائق، رقم : 1، 1992 م، ص، 154.

18. أبو يعقوب يوسف بن يحيى بن عيسى بن الزيات التادلي، **التشوف إلى رجال التصوف، وأخبار أبي العباس السبتي**، تحقيق، أحمد التوفيق، منشورات كلية الآداب والعلوم الإنسانية، الرباط، الطبعة الأولى، 1984 م، ص، 133.

كل النماذج تخص المغرب الأقصى، ولدينا نموذج عن الأندلس يتعلق بالعثور على كنز في إشبيلية أيام الناصر أبي عبد الله بن المنصور الموحدي.

أبو الحسن علي بن يوسف الحكيم المديوني الفاسي، **الدوحة المشتبكة في ضوابط دار السكة**، حققه وذيل عليه، حسين مؤنس، دار الشروق، القاهرة - بيروت، الطبعة الثانية، 1406 هـ/ 1986 م، ص، 102.

19. أبو الحسن علي بن محمد بن حبيب الماوردي البصري البغدادي، **الأحكام السلطانية والولايات الدينية**، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، دون تاريخ، ص، 153.

يوجد بغير نفقة ولا كبير عمل»[20]. والمقصود بالجاهلية، الأمم السابقة عامة. أما حكمه، فـ» يكون لواجده، وعليه خمسه يصرف في مصرف الزكاة، لقول النبي ع : «وفي الركاز الخمس" (...) وما وجد في أرض مملوكة فهو في الظاهر لمالك الأرض لا حق فيه لواجده، ولا شيء فيه على مالكه إلا ما يجب من زكاة»[21]. أو كما قال ابن يوسف «ففي قليله وكثيره الخمس يوم أخذه، ويصرف في مصالح المسلمين»[22]. هذا على مذهب المالكية فيما يبدو. أما الحنفية، فمذهبهم وحكمهم أن «واجد الركاز مخير بين إظهاره وبين إخفائه، والإمام إذا ظهر له مخير بين أخذ للخمس أو تركه»[23]. ولعل هذا كان موقف الخليفة الموحدي السابق الذكر. فإذا صحت الرواية، يرجح عدم اتباع هذا الخليفة الموحدي للمذهب المالكي !

أما الصنف الثاني الذي لا يمكن إدراجه بدوره في موضوع الكنزيين، فمنه ما جاء في ترجمة أحمد بن البناء الأزدي المراكشي، «قال ابن شاطر : كنت قاعدا مع ابن البنا بمراكش بدكان طبيب، فإذا برجل جاء إليه وقال له : "يا سيدي، إن والدي توفي، وكان متهما بالمال، ولم يترك لي شيئا، وقيل لي أن ماله مدفون بداره، فنحب خاطرك معي لوجه الله تعالى". فنظر الشيخ في نفسه برهة، فقال للرجل : "صور لي صورة الدار في الرمل". فصور له الدار من غير أن يدع منها شيئا، ثم أمره أن يزيل صورتها فأزالها، فأمره بإعادتها ثانيا ففعل، فأمره بزوال الصورة وبإعادتها ثالثا، وقال له : "إن مالك في هذا الموضع منها". فانصرف الرجل، وبحث في الموضع، فوجد به المال كما ذكر رحمة الله تعالى عليه»[24]. وهذا يثبت وجود ضرب

---

20. علي بن يوسف الحكيم، **الدوحة المشتبكة**، ص، 132.
21. الماوردي، **الأحكام السلطانية**، ص، 153.
22. علي بن يوسف الحكيم، **الدوحة المشتبكة**، ص، 132.
23. الماوردي، **الأحكام السلطانية**، ص، 153.
24. أبو العباس أحمد بن أحمد بن أبي العافية بن القاضي المكناسي، **جذوة الاقتباس في ذكر من حل من الأعلام مدينة فاس**، الجزء الأول، دار المنصور للطباعة والوراقة، الرباط، 1973 م، ص، 149. ==

الرمل[25]، والاعتقاد به. أما موضوع الكنزيين المقصود، فقسمته إلى أربعة عناصر، استخلاصتها من خلال تفكيك دقيق، ما أمكن، للمصادر القليلة المعتمدة؛ حاولت في العنصر الأول الإجابة عن السؤالين التاليين : من أين أتت فكرة التنقيب عن الكنوز؟ وهل الاعتقاد بتخزين أموال الأمم السالفة كاف لوحده لتفسير عملية التنقيب تلك ؟ وعرفت في العنصر الثاني بالكنزيين ووضعيتهم الاجتماعية والاقتصادية، والأسباب التي دفعتهم إلى البحث عن الدفائن النفيسة، ووقفت باقتضاب شديد عند تنظيماتهم. ثم حاولت في العنصر الثالث تتبع خطوات الكنزيين من حيث الوسائل التي سخروها لعملهم، خاصة التقاييد التي تدل على أماكن الكنوز، والحيل التي استعملوها في هذا الباب، وألقيت نظرة على الأماكن التي اختاروها هدفا للتنقيب، وزمن التنقيب. وبعد الوصول إلى المكان المحدد، وقفت عند طرق السحر والتعزيم التي اعتمدت من طرف بعض الكنزيين لاستخراج الكنوز، وكذا الوسائل المادية للوصول إليها. بعد ذلك، عرضت للمخاطر التي اعترضت الكنزيين أثناء عملية التنقيب والحفر، وتساءلت عن مدى نجاحهم أو فشلهم في مسعاهم، ثم تعرضت للأضرار التي كانت تسفر عنها عمليات التنقيب، وبحثت في العقوبات التي سلطت على من ضبط منهم متلبسا بفعله. وأفردت العنصر الرابع والأخير للحديث عن موقف الفقهاء والصوفية من الكنزيين وطبيعة نظرتهم الدونية التسفيهية للفقهاء والصوفية إزاءهم ومرجعيتها وخلفياتها، ولاسيما النقد الذي وجهه ابن خلدون إلى عملية التنقيب عن الكنوز وموقفه

== دفن الكنوز ليستفيد منها أهل الهالك أمر معروف في الثقافة الإسلامية، تحيل عليه الآيتين 77 و82 من سورة الكهف في حكاية الرجل الصالح مع النبي موسى.] فانطلقا حتى إذا أتيا أهل قرية استطعما أهلها فأبوا أن يضيفوهما فوجدا فيها جدارا يريد أن ينقض فأقامه قال لو شئت لاتخذت عليه أجرا [.] وأما الجدار فكان لغلامين يتيمين في المدينة وكان تحته كنز لهما وكان أبوهما صالحا فأراد ربك أن يبلغا أشدهما ويستخرجا كنزهما رحمة من ربك[.

25. أحمد بن علي البوني، **رسالة ميزان العدل في مقاصد أحكام الرمل**، المكتبة الثقافية، بيروت، دون تاريخ، ص، 528-552.

من الكنزيين المغاربة تحديدا.

إذن، فمن أين أتت فكرة التنقيب عن الكنوز ؟ وهل الاعتقاد بتخزين أموال الأمم السالفة كاف وحده لتفسير عملية التنقيب تلك ؟

يرى "بول باسكون" (Paul PASCON) أنه إذا نحن «أنصتنا [للمغاربة] فلربما اعتقدنا أن المغرب مستودع عجائبي للكنوز، ففي كل منطقة، يؤكد لك أشخاص رزناء متزنون أنهم يملكون الأدلة القاطعة على أن ثروة هائلة للقطع الذهبية، والأحجار الكريمة، والأسلحة الغالية الثمن قد اكتشفت مؤخرا مدفونة في باطن الأرض أو أن اكتشافها وشيك»[26]. واللافت للانتباه في هذا الباب أن أسطورة جودر الصياد، وهي من حكايات "ألف ليلة وليلة"، تجعل المغرب مسرحا للفصل الذي يتحدث عن المغارة المكدسة بالذهب والأحجار الكريمة[27].

والظاهر، أن شيوع فكرة التنقيب عن الكنوز، في بلاد المغرب الأقصى، غذاها بقوة تداول أخبار عن وجود كنوز لا تحصى في باطن الأرض دفنتها الأمم التي سادت قبل وصول المسلمين إلى البلاد[28]، ورسوخ الاعتقاد الجازم بذلك[29]. فحسب شهادة الوزان، كان الكنزيون المغاربة مقتنعين «تماما بأن الرومان عندما أخذت منهم إمبراطورية إفريقيا، وفروا إلى بلاد بتيك في إسبانيا، دفنوا في ضواحي فاس عددا وافرا من الأشياء الثمينة النفيسة التي

26. Paul Pascon, «Mythes et croyances au Maroc», In *Bulletin économique et social du Maroc*, N° double 155-156, Janvier 1986, p. 75.

27. *Ibid.* p. 73.

28. أبو زيد عبد الرحمن بن أبي بكر بن خلدون الحضرمي، **مقدمة ابن خلدون**، الجزء الثاني، مهد لها وحققها وشرحها، علي عبد الواحد وافي، نهضة مصر للطبع والنشر، القاهرة، 1979 ـ 1981 م، ص، 913.

29. نفسه، ن.ج، ن. ص. أبو عبد الله محمد بن علي بن محمد بن الأزرق، **بدائع السلك في طبائع الملك**، الجزء الثاني، تحقيق وتعليق، علي سامي النشار، منشورات وزارة الإعلام، الجمهورية العراقية، 1978 م، ص، 301.

لم يتمكنوا من أخذها معهم، وسحروها»[30]. ومن هذه الضواحي «جبل تَغَاتْ، [الواقع] على بعد نحو سبعة أميال غربي فاس»[31]. والأدهى من هذا، أن بعض الكنزيين في مدينة فاس، كانوا يزعمون بأن لديهم تقاييد تحيل على الأماكن التي توجد فيها الكنوز[32]. وعلق كربخال على اعتقاد الكنزيين ومزاعمهم تلك، بأن هؤلاء «لا يمكن علاجهم من هذه الفكرة التي ورثوها خلفا عن سلف فيضيعون وقتهم ومالهم في [الـ]حفر»[33]، وسبق لابن الأزرق أن انتقد هذا الاعتقاد وتلك الادعاءات، واعتبر الحكايات المتداولة حول الموضوع «أحاديث خرافة»[34].

يفسر علم الاجتماع انتشار مثل هذه الخرافات في المجتمع واستفحالها بزيادة صعوبة ظروف الحياة وتعقيداتها، لاسيما زمن التحولات العميقة، «"أي أن الخرافات تكثر وتنتشر بانتشار حالات القلق والاضطراب والشعور بالضعف والعجز عن مواجهة مشكلات الحياة ومخاطرها"»[35]. ولا غرو، أن مغاربة العصر الوسيط وأواخره على وجه التحديد، عاشوا ظروفا عصيبة بفعل بشري وطبيعي معا. وهو ما يعني أن أزمات العصور الوسطى، وما كانت تتسبب فيه فقر وحرمان، أسهمت في ظهور وتزكية فئة من الحالمين بالثروة، والساعين إلى الحصول عليها بأقل جهد ممكن، ومنهم الكنزيين.

لعل هؤلاء الكنزيين كانوا كذلك متيقظين إلى أن تخزين الأموال والنفائس لم يكن مقتصرا على أموال الأمم السالفة فقط، وإنما أيضا لكنوز المغاربة أنفسهم، فليس من المستبعد وقوع شيء مماثل لما ذكره (Paul Pascon) من

30. الوزان، **وصف إفريقيا**، ج 1، ص، 274. راجع أيضا : ص، 299 ـ 300. كربخال، **إفريقيا**، ج 2، ص، 186.

31. الوزان، **وصف إفريقيا**، ج 1، ص، 300 ـ 301.

32. كربخال، إفريقيا، ج 2، ص، 186.

33. نفسه، ن.ج، ن.ص.

34. ابن الأزرق، **بدائع السلك**، ج 2، ص، 301.

35. مصطفى واعراب، **المعتقدات السحرية في المغرب**، ص، 8.

إخفاء بعض الحجاج الذاهبين إلى مكة لثرواتهم في مكان أو أمكنة معينة، ولكي لا ينسوا ذلك المكان أو الأمكنة، لاسيما أن الرحلة إلى الحج في القديم كانت يستغرق وقتا طويلا، فإنهم كانوا يحددون موقعها في أوراق وتقاييد، غير أنها كانت تقع أحيانا «في أيدي شبكة سوسية محكمة التنظيم تمتد خيوطها إلى [شبه] الجزيرة العربية حيث تستولي على بقايا الحجاج المغاربة»[36]، لاسيما تقاييد أولئك الذين يعالجهم الموت أو غيره من صروف الدهر.

ومعلوم أن دوافع لجوء الأغنياء من المغاربة إلى إخفاء ثرواتهم وكنوزهم خلال العصر الوسيط كانت كثيرة، ومنها تعرض البعض منهم أحيانا لأسباب سياسية أو مهنية أو اقتصادية لتعسف السلطات بمصادرة أموالهم، أو لأسباب تتعلق بانعدام الأمن أحيانا، بفعل الفتن والتمردات والحروب التي كانت تظهر بين الفينة والأخرى، فكلها من أسباب إخفاء ما قل وزنه وغلا ثمنه[37].

لكل هذا وغيره، يبدو أن وجود الكنوز في المغرب الأقصى لم يكن مجرد اعتقاد أو تخمين أو أضغاث أحلام، وإنما غذاه بقوة، بالإضافة إلى ما سبق، حقائق وشائعات حول عثور بعض المغاربة صدفة على بعضها، واغتنائهم

---

36. Paul Pascon, « Mythes et croyances au Maroc », *op. cit*, p. 75.

37. محمد ياسر الهلالي، **مجتمع المغرب الأقصى خلال القرنين الثامن والتاسع هـ/ XIV-XV م، مساهمة في دراسة بعض مفاهيم التراتب الاجتماعي (» العامة «–» الخاصة «/ » الطبقة «–» المرتبة «)**، أطروحة لنيل شهادة الدكتوراه في التاريخ، جامعة محمد الخامس، كلية الآداب والعلوم الإنسانية، الرباط، السنة الجامعية، 1999 ـ 2000 م، (مرقونة)، ص، 469-467. راجع في هذا الإطار أيضا: أبو الحسن علي بن بسام الشنتريني، **الذخيرة في محاسن أهل الجزيرة**، المجلد الأول، تحقيق إحسان عباس، الدار العربية للكتاب، تونس ـ ليبيا، 1981 م، ص، 199. ابن الحاج، **المدخل**، ج 1، ص، 41.

ذكر عمر أفا، استنادا إلى نص من ألواح أحد حصون قبائل سوس، أن أمناء الحصن لم يكونوا يقبلون بتحمل أية مسؤولية في حالة ضياع نقود أحد فراد القبيلة المدخرة في الحصن. **مسألة النقود في القرن التاسع عشر (سوس 1822 ـ 1906)**، منشورات كلية الآداب والعلوم الإنسانية، أكادير، 1988 م، ص، 269. ولعل هذا لم يكن يشجع على تخزين الأموال بمؤسسة "أادير"، وبالتالي اللجوء إلى كنز الأموال بمناطق مختلفة حتى من باب عدم معرفة القبيلة بالثروة الحقيقية للشخص.

بفعلها[38]، كما سلف القول، أو الاهتداء إليها بعلم مسبق بوجودها مما قوى من جشع الكنزيين في العثور عليها يوما ما. ومما زاد من عزائمهم أكثر ما حفلت به بعض المؤلفات من روايات متواترة عن العثور عن بعض الكنوز في المدن والتجمعات القديمة. فمدينة طنجة التي ضمت كثيرا من آثار القدامى، لكونها كانت موطنا للرومان والقرطاجيين وغيرهم من الأمم التي مرت على المغرب، ودارا لملكهم، «إذا حُفِرَتْ خرائب[ها] وجدت فيها أصناف الجوهر»[39]. وإذا صدقنا ما ورد في بعض كتب الجغرافيا، فإن ما نعتتهم هذه المصادر بالمجوس، قصدوا مدينة أصيلة أيام عبد الرحمان بن الحكم، لاستخراج بعض الكنوز التي تركوها في المغرب، لكن المغاربة تصدوا لهم. وبعد مفاوضات بين الطرفين، سُمِحَ لهم باستخراجها مقابل اقتسامها، «فحفر المجوس موضعا من تلك المواضع التي زعموا، فوجدوا مطامير من الدخن فاستخرجوه، فلما نظر البربر من بعيد إلى صفرة الدخن ظنوه تبرا، فبدروا إليهم ونقضوا عهدهم، وهرب المجوس إلى مراكبهم. فلما أصاب البربر الدخن، ندموا ورغّبُوا إلى المجوس أن يرجعوا إلى استخراج المال، قالوا لهم: "قد رأينا منكم نقض العهد فلا نأمنكم أبدا"»[40].

---

38. أشار عمر أفا إلى أن المغاربة ما زالوا يعثرون بالصدفة بين الفينة والأخرى على نقود ذهبية أو فضية. وذكر أنه في سنة 1977 م، شاهد أحد الفلاحين من سكان تزنيت يبيع بالكيلوغرام لأحد الصاغة قطعا نقدية كثيرة كلها من الدرهم الموحدي المربع، وأخبرهم الفلاح بأنه وجدها في أحد حقوله في إناء فخار بمحض الصدفة، واقتنا الأستاذ عشرة منها بقيمة زهيدة. **مسألة النقود في القرن التاسع عشر**، ص، 269. هـ، 21.

39. مجهول، **كتاب الاستبصار في عجائب الأمصار**، نشر وتعليق، سعد زغلول عبد الحميد، دار النشر المغربية، الدار البيضاء، 1985 م، ص، 139-138. محمد بن محمد بن عبد الله بن عبد المنعم الحميري، **الروض المعطار في خبر الأقطار، معجم جغرافي**، تحقيق، إحسان عباس، مكتبة لبنان، بيروت، الطبعة الثانية، 1984 م، ص، 396-395.

40. مجهول، **كتاب الاستبصار**، ص، 140-139. الحميري، **الروض المعطار**، ص، 42. راجع أيضا: أبو عبيد عبد الله بن عبد العزيز بن محمد البكري القرطبي، **المغرب في ذكر بلاد إفريقية والمغرب، وهو جزء من كتاب المسالك والممالك**، نشره دوسلان، مكتبة المثنى، بغداد، مطبعة الحكومة، الجزائر، 1857 م، ص، 112-111.

فمن هم هؤلاء الكنزيون الذين نتحدث عنهم ؟ وما هي وضعيتهم الاجتماعية ؟

يظهر من خلال استقراء المصادر أن الكنزيين لم يكونوا كلهم من المغاربة، فقد سبق أن رأينا أن بعض "المجوس" جاءوا إلى المغرب للتنقيب عن الكنوز التي تركوها فيه قبل تنحيهم عنه[41]. وإذا كانت هذه الحالة حدثت أيام عبد الرحمان بن الحكم، فليس من المستبعد استمرارها حتى أواخر العصر الوسيط وبعده، لاسيما بعد تدفق المسيحيين، من إسبان وبرتغاليين، على السواحل المغربية.

لم يكن الكنزيون المغاربة من شريحة واحدة، فبعضهم كانوا من مريدي الصوفية[42]. ولعل هؤلاء كانوا فقراء في معظمهم، إذ من البديهي أن يشكل الفقراء الحالمون بالثروة أس هذه الفئة الاجتماعية بشهادة عدة مصادر مختلفة المشارب؛ فقد لاحظ ابن الحاج[43] أن المشتغلين باستخراج الأموال المدفونة في الأرض، الغالب عليهم « فيما يظهر الفقر المدقع والديون الكثيرة»[44]. وأكد في مقام آخر، أن "كثيرا من أهل هذا الشأن الغالب عليهم شظف العيش، وقلة ذات اليد"[45]. وسجل كربخال في مرحلة لاحقة، بأن الكنزيين القادمين من فاس إلى جبل تغات للبحث عن الكنوز، كانوا من الفقراء[46]، شأنهم في ذلك شأن كنزيي بني تيزيران (جبل في إقليم الريف) الذين كانوا ينقبون بدورهم في الجبل نفسه[47].

---

41. مجهول، **كتاب الاستبصار**، ص، 140-139. الحميري، **الروض المعطار**، ص، 42.

42. ابن الحاج، **المدخل**، ج 2، ص، 294.

43. نفسه، ن.ج، ن.ص.

44. ابن الحاج، المدخل، ج 2، ص، 294.

45. نفسه، ن.ج، ص، 296. نفس الرأي تبناه ابن الأزرق، **بدائع السلك**، ج 2، ص، 302.

46. كربخال، **إفريقيا**، ج 2، ص، 186.

47. نفسه، ن.ج، ص، 251-250. إذا كانت مصادرنا، التي تعود في غالبها إلى شمال المغرب، أكدت بأن الانتماءات المجالية للكنزيين غالبا ما كانت في فاس والمناطق المتاخمة لها، فإننا لا نعرف بالضبط متى أصبح السوسيون هم المشهورين في المغرب بأعمال التنقيب عن الكنوز. راجع : ==

وبين زمني ابن الحاج وكربخال، ذكر ابن خلدون أن الكنزيين تشكلوا من «طلبة البربر (...) العاجزين عن المعاش الطبيعي (الفلاحة والصناعة والتجارة) وأسبابه»(48)، وهم بذلك، حسب رأيه دائما، كانوا يطلبون الرزق بالوجوه المنحرفة «عجزا عن السعي في المكاسب، وركونا إلى تناول الرزق من غير تعب ولا نصب في تحصيله واكتسابه، ولا يعلمون أنهم يوقعون أنفسهم، بابتغاء ذلك من غير وجه في نصب ومتاعب وجهد شديد أشد من الأول»(49). فهل كان هؤلاء بالفعل كذلك؟ وهل كانوا مخيرين تماما فيما انتحلوه من حرفة إن صح التعبير؟

إذا لم يكن بد من النفي الكلي لما ذهب إليه ابن خلدون، فلا يمكن، في المقابل، التسليم به في المطلق، ويمكن مناقشة صاحب المقدمة، انطلاقا من منظومته نفسها، في البواعث التي حفزت الكنزيين على التنقيب عن الكنوز. إذ كيف لهؤلاء أن يتغلبوا على عجزهم؟ في وقت اعترف فيه هو نفسه بأن «السعادة والكسب إنما يحصل غالبا لأهل الخضوع والتملق»(50). «وأن القائمين بأمور الدين والفتيا والتدريس والإمامة والخطابة والأذان ونحو ذلك لا تعظم ثروتهم في الغالب»(51). وأن «الفلاحة معاش المستضعفين»، ولذلك لا تجد أحدا من المترفين ينتحلها(52). ثم إن السلطة القائمة أثقلت الأنشطة الاقتصادية من

== Paul Pascon, « Mythes et croyances au Maroc », *op. cit*, p.75.

فقد "اشتهر بسوس كثير من أدعياء التفقه في مجال البحث عن الكنوز المرصودة واكتشافها ولا تزال حكاياتهم شائعة". عمر أفا، **مسألة النقود في القرن التاسع عشر**، ص، 269. هـ، 22.

48. ابن خلدون، **مقدمة**، ج 2، ص، 914. نفس الرأي تبناه ابن الأزرق، بدائع السلك، ج 2، ص، 302.

49. نفسه، ن.ج، ص، 914-915.

50. ابن خلدون، **مقدمة**، ج 2، ص، 920.

51. نفسه، ن.ج، ص، 925.

52. ابن خلدون، **مقدمة**، ج 2، 926.

فلاحة، وحرف، وتجارة بالضرائب خاصة في الفترة التي أعقبت حكم أبي عنان المريني[53]، كما سيطرت على التجارة البعيدة المدى... إلخ ؟ فلعل «العجز عن طلب المعاش بالوجوه الطبيعية للكسب من التجارة والفلح والصناعة»[54]، هو ما دفع «بأولئك الطلبة إلى استيهام الغنى واللهث وراء المستحيلات حتى لو أوقعهم ذلك في شتى أنواع المتاعب والعقوبات»[55]. وذلك ما سنعرض له بعد قليل. إنه مجهود اليائس لإرغام الأرض على كشف كنوزها «لأولئك الذين يُغَذّون، طوال حياتهم، استيهامات الاغتناء الفياض الخارق للعادة. وإن هذا ليعطي صورة عن الفقر الحقيقي القائم، ويشير كذلك على صعيد اجتماعي - سياسي (...) إلى ندرة المعادن النفيسة، مما يجعلها موضوع السراب والحلم»[56].

لكن، لا يجب الاعتقاد بأن الباحثين عن الكنوز، انحردوا جميعا من شرائح معدمة باحثة عن الغنى. بل إن بعضهم، كانوا من الأغنياء؛ فقد ذكر الوزان أن أحد أصدقائه من أعيان فاس، قام رفقة عشرة من أصدقائه بعملية التنقيب عن الكنوز في جبل مائة بير(*)، ووصف ما قاموا به بالحماقة[57].

قد يتبادر إلى الذهن أن ما قام به هؤلاء مجرد رغبة في الاستكشاف، حسب تعبير الوزان نفسه. لكن يبدو الأمر أبعد من ذلك، وهو ما نجد تفسيره عند ابن خلدون؛ فمن وجهة نظره، «ربما يحمل على [البحث عن الكنوز] زيادة الترف وعوائده، وخروجها عن حد النهاية حتى تَقْصُر عنها وجوه الكسب ومذاهبه، ولا تفي بمطالبها. فإذا عجز عن الكسب بالمجرى الطبيعي، لم يجد وليجة في نفسه إلا التمني، لوجود المال العظيم دَفْعَةً من غير كلفة، ليفي له

53. محمد ياسر الهلالي، **مجتمع المغرب الأقصى**، ج 2، ص، 380-363.

54. ابن خلدون، **مقدمة**، ج 2، ص، 914.

55. بنسالم حميش، **الخلدونية في ضوء فلسفة التاريخ**، دار الطليعة، بيروت، الطبعة الأولى، 1998 م، ص، 84.

56. نفسه، ص، 85.

*. يقع في الإقليم السابع في مملكة فاس، وهو جزء من الأطلس الكبير.

57. الوزان، **وصف إفريقيا**، ج 1، ص، 365.

ذلك بالعوائد التي حصل في أسرها، فيحرص على ابتغاء ذلك، ويسعى فيه جهده. ولهذا، فأكثر من تراهم يحرصون على ذلك، هم المترفون من أهل الدولة، ومن سكان الأمصار الكثيرة الترف المتسعة الأحوال، (...) فنجد الكثير منهم مغرمين بابتغاء ذلك وتحصيله"[58].

يضيف هذا النص الأخير معطا جديدا، مفاده أن السلطة كانت متورطة بشكل أو بآخر في التنقيب عن الكنوز، أو على الأقل بعض من «أهل الجاه» من رجالاتها أو من المحسوبين عليها الذين كانوا يسخرون بعض الأشخاص للبحث عن الكنوز لحسابهم الخاص[59]. وهذا ما يفسر، على ما يبدو، قيام بعض الكنزيين أحيانا بعمليات الحفر والتنقيب جهارا بفعل الحماية التي استظلوا بها، في حين اضطر آخرون إلى استخدام حيل كثيرة لتحقيق مآربهم ومبتغاهم[60]. ويتحسر المؤرخ عن إحجام ابن الحاج عن ذكر الجهات التي كانت تحمي هؤلاء الكنزيين لممارسة أعمالهم، وإن كنا نعتقد أن بعض رجالات السلطة كانوا متورطين في ذلك استنادا إلى كلام ابن خلدون السابق.

ولعل مجاراة السلطة للكنزيين في التنقيب عن الكنوز، وتورطها في هذا الأمر، راجع إلى اضمحلالها[61]، نتيجة لعدة عوامل، أهمها في هذا الباب نضوب المعادن في المغرب خلال القرن السابع هـ/ XIII م[62]، وخاصة بعد الثامن

58. ابن خلدون، **مقدمة**، ج 2، ص، 915.

59. نفسه، ن.ج، ص، 914.

60. ابن الحاج، **المدخل**، ج 2، ص، 298.

61. بنسالم حميش، **الخلدونية**، ص، 85.

62. قال ابن يوسف الحكيم: «والفضة في أماكن من المغرب كجبال جندر وما والاها من أرض السوس، وبمعدن عرام، ووانشريس، ولكن أهمل البحث فيها. وكثيرا ما تجلب إليه من مدينة سردانية، وقليلا من أرض إلبيرة، وجهة إشبيلية، وكبرفيق من عمل قرطبة، وجبال مرسية، وبجانة». **الدوحة المشتبكة**، ص، 42-41. ثم أن ابن يوسف الحكيم، وهو الذي عاش خلال القرن الثامن هـ، لم يذكر مناجم لاستخراج الذهب في المغرب.

Amina Benkhadra et Ahmed El Abbaoui, Ressources minérales, 2006, p. 489. Extrait du == site : HYPERLINK "http://www.ONHYM.ma *www.ONHYM.ma*

هـ/ XIV م بفعل الخراب الذي حل بالعديد من المناجم المغربية، وخاصة مناجم الذهب والفضة بعدما لم تعد تقنيات المرحلة تساعد على استخراج المزيد[63]، وكذا بفعل الصراع الموحدي - المريني، مثل ما حدث «لمدينة» معدن عوام التي خربها يعقوب بن عبد الحق المريني سنة 660 هـ/ 1262 م، وهو في طريقه إلى مراكش، حيث قتل سكانها، ولم تعمر بعد ذلك الحين وإلى حدود نهاية القرن التاسع هـ/ XV م على الأقل[64]. يضاف إلى هذا الحروب المرينية الداخلية[65]، وتراجع واردات المغرب من ذهب السودان، لأسباب عدة ليس هذا مقام تفصيلها، كل ذلك تسبب في حدوث أزمة نقدية خلال القرن الثامن هـ/ XIV م[66].

وبالرغم من هذا التفسير المنطقي، لا يجب الاعتقاد أن اهتمام الفقراء والسلطة على حد سواء بأمر الكنوز هو وليد الحقبة المبحوث فيها، والمجال المدروس، فقد أكد البيروني، الذي عاش ما بين النصف الثاني من القرن الرابع الهجري والنصف الأول من القرن الخامس الهجري، وتحديدا ما بين (362 ـ 440

= وذهب حميد تيتاو، دون سند مصدري، إلى أن المناجم التي بقيت نشيطة، تدنت فيها أساليب استخراج المعادن، ووسائل التصفية والسبك. **الحرب والمجتمع بالمغرب الأقصى خلال العصر المريني 609 ـ 869 هـ/ 1212 ـ 1465 م، إسهام في دراسة انعكاسات الحرب على البنيات الاقتصادية والاجتماعية والذهنية**، أطروحة لنيل الدكتوراه في التاريخ، جامعة المولى إسماعيل، كلية الآداب والعلوم الإنسانية، مكناس، السنة الجامعية، 2008-2007 م، ص، 203.

ولعل الأبحاث الأثرية التي تقوم بها مجموعة من الفرق، تؤكد هذه الفرضية، حسب ما أكده لي الباحث عبد العالي ابن احمد، الذي يهيئ أطروحة في موضوع **التعدين بالمغرب الوسيط** في كلية الآداب والعلوم الإنسانية بمكناس.

63. Amina Benkhadra et Ahmed El Abbaoui, *Ressources minérales*, op. cit, p. 489.

64. الوزان، **وصف إفريقيا**، ج 1، ص، 204.

65. حميد تيتاو، **الحرب والمجتمع بالمغرب الأقصى خلال العصر المريني**، ص، 203-202.

ولعل الأبحاث الأثرية التي تقوم بها مجموعة من الفرق، تؤكد هذه الفرضية، حسب ما أكده لي الباحث عبد العالي ابن احمد، الذي يهيئ أطروحة في موضوع **التعدين بالمغرب الوسيط** في كلية الآداب والعلوم الإنسانية بمكناس.

66. مصطفى نشاط، "المغرب المريني وأزمة القرن 14 م/ 8 هـ النقدية"، **مجلة أمل : التاريخ، الثقافة، المجتمع**، السنة الأولى، العدد الثالث، 1993 م. ص، 19-4.

هـ)، وفي مجال غير مجال المغرب الأقصى، بأن : «الدفائن الباقية تحت الأرض تكون في الأغلب لطبقتين من الناس شديدتي التباين، متباعدتيين في الطرفيين الأقصيين وهما أهل السلطة وأهل المسكنة»[67].

يهمنا مما سبق، أن المهتمين بالبحث عن الكنوز واستخراجها لم تكن أعدادهم قليلة، وأنهم كانوا من شرائح مختلفة، وهذه الكثرة لم يفهمها الوزان، في ما بدى لي، حين اعتبر تنصيب الكنزيين في فاس أمينا لهم حماقتهم منهم ليس غير[68].

فما هي الوسائل التي سخرها الكنزيون للتنقيب عن الكنوز ؟

عكف الكنزيون، حسب (Paul PASCON)، على «دراسة مخطوطات الخيمياء القديمة، وكتب الطلاسم، ومربعات العرَافة»[69]. وإذا كانت المصادر المطلع عليها لم تشر إلى هذا الموضوع، فإن أهم ما يثير الانتباه في هذا الباب، هو ادعاء الكنزيين توفرهم على أوراقٍ وتقاييد تشير إلى أماكن دفن الكنوز[70]. وهي، أو بعضها على الأقل، عبارة عن أوراق متخرمة «الحواشي إما بخطوط عجمية أو بما ترجم بزعمهم منها من خطوط أهل الدفائن»[71]. وكانت تتداول بسرية تامة بينهم[72].

تضمنت بعض الوثائق والتقاييد المشار إليها، طرقا لاستخراج الكنوز في ارتباط مع ممارسات سحرية وتعزيمية. وإذا كانت بعض الكنوز المدفونة محمية بطلاسم سحرية، حسب الكنزيين، فإن تلك التقاييد تُعَرِّفُ «بوسائل فك

67. أبو الريحان محمد بن أحمد البيروني، **الجماهر في الجواهر**، تحقيق يوسف الهادي، شركة النشر العلمي والثقافي، طهران، 1995 م، ص، 98.

68. الوزان، **وصف إفريقيا**، ج 1، ص، 274.

69. Paul Pascon, « Mythes et croyances au Maroc », op. cit, p. 75, note 6.

70. ابن خلدون، **مقدمة**، ج 2، ص، 914. الوزان، **وصف إفريقيا**، ج 1، ص، 274.

71. ابن خلدون، **مقدمة**، ج 2، ص، 914.

72. محمد استيتو، **الفقر والفقراء في مغرب القرنين 16 و17 م**، مؤسسة النخلة للكتاب، وجدة، 2004 م، ص، 227.

الألغاز والطلاسم المرصودة لحماية تلك الكنوز من أجل استخراجها»[73]. ولا بأس من إدراج أنموذج لتقييد حدد مكان دفن الكنز، وكيفية حل طلاسمه : «رسالة من عند سيدي محمد بن عبد الرحمان بن عز الدين لعبادي قِبَلَةَ [كذا] بني وطاس[74] سيقول إني تركت في المكان المسمى هُونَكَ مِنوَلِيْنْ ومَدْرة الصوف ومعهم سطل من الفظ [كذا] بهذه المسايل وعليه أن يسأل على سيدي موسى الراعي[75]، ويسأل عن لبريع إذ وحتها[76] [كذا] اسأل على كاف [كهف] أولاد العبد[77] من قبيلة بني وطاس المذكور الذي طركها [تركها] هوناك [هناك] يوم 12 رجب عام 810 هـ فقد توفي سنة 813 هـ ثم طركها فريد ولده اسمه يوسف بن محمد بن عبد الرحمن المذكور ووصّا عليها وصية وبعد ذلك إلى يومنا هذا وعزمتها سورة الشّعرا وبخورها شعر الخنزير وشعر الغزال البوري مع الفسوخ فإن المكن [المكان] ينحل على ما فيه والسلم [السلام] اهـ»[78].

لقد شكك الكثيرون في مثل هذه الأوراق والتقاييد وسفهوها، فاعتبرها ابن الحاج «باطلة»[79]، واتهم اليهود والنصارى (أهل الأديان الباطلة) باختلاقها، حيث كانوا «يكتبون أوراقا في ذُرْوَة الجبل الفلاني من الناحية

---

73. نفسه، ن. ص.

74. فرقة من بني وطاس كانت تستقر بجبال بني يزناسن. محمد استيتو، **الفقر والفقراء**، ص، 227، هـ، أ.

75. الراجح أنه سيدي موسى بن احمد بن اعمرو بن محمد اليملاحي الملقب بـ "النّزّاع"، وهو من ذرية سيدي يملاح بن مشيش دفين جبل القعدة بقبيلة بني محيو من جهة الجوف. نفسه، ن.ص، هـ، ب.

76. قد تكون إذا وجدتها أو إذا رحتها أي رحت إليها بمعنى قصدتها أو ذهبت إليها بلهجة المغرب الشرقي حتى اليوم. محمد استيتو، **الفقر والفقراء**، ص، 227، هـ، ج.

77. الراجح أنه يقصد الكهف الواقع غرب الثنية الغدّارة، حيث الأرض التي ورثها أبناء سيدي محمد المذكور عن أمهم رحمة بنت أحمد البختاوي العبدوادي. نفسه، ن.ص، هـ، د.

78. توجد هذه الرسالة ضمن مجموعة من الوثائق والتقاييد في ملكية السيد الشرعي، المقيم بمدينة العيون الشرقية. محمد استيتو، **الفقر والفقراء**، ص، 227.

79. ابن الحاج، المدخل، ج 2، ص، 298.

الفلانية منه كذا وكذا إذا حفرت فيه كذا وكذا وقست كذا وكذا تجد فيه كذا وكذا، وفي ورقة أخرى الغار الفلاني في جهة كذا وكذا منه، تحفر قدر كذا وكذا فتجد كذا وكذا إلى غير ذلك، وهو كثير»[80]. لكن، وأمام العدد الكبير للكنزيين، لا يبدو أن اليهود والنصارى وحدهم من اختلق تلك الأوراق والتقاييد. ووجه ابن خلدون، من جهته، نقدا لاذعا إلى تلك التقاييد، وشكك بدوره في وجودها، وتساءل: كيف لمن يختزن ماله، ويختم عليه بالأعمال السحرية بقصد إخفائه أن «ينصب عليه الأدلة والأمارات لمن يبتغيه، ويكتب ذلك في الصحائف حتى يطلع على ذخيرته أهل الأعصار والآفاق [؟] هذا يناقض قصد الإخفاء. وأيضا فأفعال العقلاء لا بد وأن تكون لغرض مقصود في الانتفاع، ومن اختزن المال، فإنه يختزنه لولده أو قريبه أو من يؤثره. وأما أن يقصد إخفاءه بالكلية عن كل أحد، وإنما هو للبلاء والهلاك، أو من لا يعرفه بالكلية ممن سيأتي من الأمم، فهذا ليس من مقاصد العقلاء بوجه»[81]. وزاد مؤكدا بأن ما يقال في هذا الموضوع «لا أصل له في علم ولا خبر»[82]. وشكك كربخال بدوره في تلك التقاييد وسفهها[83].

لم يكن الكنزيون ليعبأوا بهذه الانتقادات، بل على العكس من ذلك، أولوا اهتماما كبيرا لتلك الأوراق والتقاييد[84]، وكانوا يحتفظون بها «وكأنها وحي إلهي»[85]. فماذا كانوا يفعلون بها ؟

يجيب ابن خلدون عن هذا السؤال بأن الكنزيين كانوا «يتقربون [بتلك الأوراق والتقاييد] إلى أهل الدنيا (...) بإعطاء الأمارات عليها في أماكنها»[86]. ولعل ذلك من الحيل التي لجأ إليها الكنزيون لاستدراج ضحاياهم، والنصب

---

80. نفسه، ن.ج، ن. ص.
81. ابن خلدون، **مقدمة**، ج 2، ص، 919-917. تبنى ابن الأزرق نفس رأي ابن خلدون، **بدائع السلك**، ج 2، ص، 303-301.
82. ابن خلدون، **مقدمة**، ج 2، ص، 917-915.
83. كربخال، **إفريقيا**، ج 2، ص، 186.
84. كربخال، **إفريقيا**، ج 2، ص، 186.
85. الوزان، **وصف إفريقيا**، ج 1، ص، 274.
86. ابن خلدون، **مقدمة**، ج 2، ص، 914.

عليهم، والإيقاع بهم. ويتأسف المؤرخ عن سكوت ابن الحاج عن الحيل الأخرى التي لجأ إليها الكنزيون، والتي وصفها بالكثيرة[87]. ونجده في المقابل متشبثا بنظرية المؤامرة، حيث اتهم مرة أخرى بعض اليهود والنصارى بالتورط في الموضوع، فمن أراد منهم « أن يخرب مسجدا أو دار مسلم بينه وبينه عداوة كتب في ورقة أن موضع كذا فيه كذا وكذا، ويكتُب تاريخا قديما، ويبخرها حتى تبقى كأنها ورقة عتيقة، ثم يعلقها في موضع من يعلم أنه يفعل ذلك بسبب قدرته عليه إما بيده الباطشة أو كثرة التحيل. فكان ذلك سببا لتخريب مساجد المسلمين، ودورهم»[88].

لا تصمد نظرية المؤامرة هذه كثيرا أمام ما جاء به ابن خلدون، فهو تحدث عن الكنزيين عموما، وعن حيلهم وكذبهم، حيث ينتهي «الكذب بهم إلى أن يسكنوا المنازل المشهورة والدور المعروفة (...)، ويحتفرون الحفر، ويضعون المطابق فيها والشواهد التي يكتبونها في صحائف كذبهم، ثم يقصدون ضعفاء العقول بمثل هذه الصحائف، ويبعثون على اكتراء ذلك المنزل وسكناه، ويوهمون أن به دفينا من المال، (...) ويَعِدُونَه بظهور الشواهد التي قد أعدوها هنالك بأنفسهم ومن فعلهم، فينبعث لما يراه من ذلك وهو قد خُدِعَ وَلُبِّسَ عليه من حيث لا يشعر، وبينهم في ذلك اصطلاح في كلامهم يلبسون به عليهم...»[89].

فما هي الأماكن التي كانت هدفا للتنقيب عن الكنوز ؟

حدد الكنزيون أهدافهم للتنقيب عن الكنوز في أماكن متنوعة، منها البيوت الخاصة[90]، والمساجد[91]، والأضرحة[92]، وقبور الأقدمين ومدافنهم.

---

87. ابن الحاج، **المدخل**، ج 2، ص، 298.

88. نفسه، ن.ج، ن.ص.

89. ابن خلدون، **مقدمة**، ج 2، ص، 917-915.

90. ابن الحاج، المدخل، ج 2، ص، 298. ابن الأزرق، **بدائع السلك**، ج 2، ص، 302-301. نذكر هنا بالكنز الذي عثر عليه كاتب الخليفة الموحدي عبد الواحد الرشيد، حينما كان بصدد تجديد جزء من داره في مراكش.

91. ابن الحاج، **المدخل**، ج 2، ص، 298. ابن الأزرق، **بدائع السلك**، ج 2، ص، 302-301.

92. الوزان، **وصف إفريقيا**، ج 1، ص، 274.

والراجح أن التنقيب في المكانين الأخيرين يعزى لاعتبارهما من المجالات الآمنة والمقدسة التي يمكن دفن الكنوز فيهما، لاسما أن المغاربة القدامى مارسوا عدة عبادات ومنها عبادة الموتى، فكانوا « يدفنون مع موتاهم المجوهرات، والجرار، والقصاع الطينية، لاعتقادهم في خلود الروح»[93]. وتركز اهتمام الكنزيين أيضا على أسس الأبنية الأثرية القديمة والأطلال[94]، كتلك الواقعة في جبل مائة بير[95]، وفي جبل تيزرن[96]. هذا علاوة على الجبال[97]، كجبل تَغَاتْ[98]، وجبل مائة بير[99]، وجبل بني تيزران[100]، وكذلك الكهوف[101]، والسراديب[102]، ومغارات جبال الأطلس[103]، والآبار لا سيما العميقة جدا[104]. ولعل التنقيب في المغارات والآبار والينابيع والعيون عامة يرجع للاعتقاد بأنها «منافذ الخروج والتجلي لأعماق الأرض وللجن القاطنين تحتها. [فـ] الكهوف تمثل فم القوى الجوفية وبطنها، والينابيع عيون (...) تسيل منها الدموع وداخل هذه

93. مصطفى واعراب، **المعتقدات السحرية في المغرب**، ص، 6.

94. الحميري، الروض المعطار، ص، 396-395. الوزان، **وصف إفريقيا**، ج 1، ص، 274.

95. الوزان، **وصف إفريقيا**، ج 1، ص، 365. كربخال، **إفريقيا**، ج 2، ص، 280.

96. كربخال، **إفريقيا**، ج 2، ص، 250.

97. ابن الحاج، **المدخل**، ج 2، ص، 298.

98. الوزان، **وصف إفريقيا**، ج 1، ص، 300.

99. نفسه، ن.ج، ص، 365.

100. كربخال، **إفريقيا**، ج 2، ص، 250.

نلاحظ هنا، أن كل هذه الأماكن المذكورة تقع شمال المغرب الأقصى، دون أدنى إشارة إلى منطقة في الجنوب. في المقابل، نجد أن مصطفى واعراب، وهو يتحدث عن أشهر مناطق التي تحتوي على الكنوز في المغرب الحالي، ذكر « منطقة سوس (الجنوب)، ومراكش، وآيت عتاب عند مقدمة الأطلس الكبير » . المعتقدات السحرية في المغرب، ص، 236. وكأننا بصدد تحول في جغرافية الكنوز في المغرب. راجع أيضا الهامش 47.

101. الوزان، **وصف إفريقيا**، ج 1، ص، 274. 300.

102. نفسه، ن.ج، ص، 300.

103. الوزان، **وصف إفريقيا**، ج 1، ص، 278.

104. نفسه، ن.ج، ص، 365. كربخال، **إفريقيا**، ج 2، ص، 280.

الأعماق، يسكن الجن الذين يهربون منها في ساعات أو ليالي معينة، ويحرسون الكنوز المطمورة فيها »[105].

وطبيعي، أن يكون التنقيب في كل هذه الأماكن في باطن الأرض[106] حيث تخبئ الكنوز، وهذا يزيد الموضوع سرية.

ونظرا لأن مواقع البحث والتنقيب هاته كانت عديدة ومتفرقة في أنحاء البلاد الواسعة، فإن ذلك استدعى قطع الباحثين عن الكنوز لمسافات طويلة لبلوغ مراميهم، حتى إن منهم من كان يتنقل لمدد طويلة قد تصل إلى «عشرة أيام أو اثني عشر يوما»[107] دون كلل أو ملل.

والراجح جدا أن الكنزيين مارسوا عمليات الحفر والتنقيب تحت جنح الظلام، لما يطبع الموضوع من سرية، وكذا «مخافة الرقباء وعيون أهل الدول»[108] خوفا هم من العقوبات المسلطة عليهم، وسأعود إلى هذا الموضوع لاحقا. ولم يكن هذا حال كل الكنزيين، فبعضهم مارس عملية الحفر والتنقيب جهارا ودون خوف بفعل حماية بعض رجالات السلطة التي استظلوا بها[109]. أما في أواخر العصر الوسيط، فيبدو أن نشاط الكنزيين أصبح مألوفا ومعترفا به، وما تعين الكنزيين لأمين لهم في مدينة فاس، كما سلف الذكر، إلا دليل على ذلك، بل وعلى أن هؤلاء أصبحوا يعدون من طوائف الحرفيين أو من على شاكلتهم، ينالهم ما ينال أصحاب الحرف الأخرى من ضرائب ورسوم، وبذلك لم يعودوا في حاجة إلى التستر، إلا ما كان من التكتم على مواقع حفرياتهم وأشغالهم. وغني عن القول إن هذا التطور ينبغي أن يفهم في سياقه التاريخي، إذ من المعلوم أن المخزن المغربي كان يمر في تلك الفترة بأزمة مالية خطيرة تضرر منها كثيرا، وأصبحت معها حاجته شديدة إلى المزيد من الأموال والجبايات.

105. Paul Pascon, « Mythes et croyances au Maroc », *op .cit*, p. 73.

106. ابن الأزرق، **بدائع السلك**، ج 2، ص، 302-301.

107. الوزان، **وصف إفريقيا**، ج 1، ص، 274.

108. ابن خلدون، **مقدمة**، ج 2، ص، 914.

109. ابن الحاج، **المدخل**، ج 2، ص، 298.

لكننا نجهل الكيفية التي كانت تفرض بها الضرائب على الكنزيين، أعلى الكنوز بعد استخراجها ؟ أم على الحرفة في حد ذاتها ؟[110]

وبالانتقال إلى الطقوس والتعازيم المرتبطة باستخراج الكنوز، فإن تأخير هذه النقطة نابع أساسا من كونها كانت تمارس في المكان المفترض للكنز. فما الدافع إلى مثل هذه الطقوس ؟

ربط ابن خلدون الاعتقاد السائد لدى البعض بأن أموال الأمم السالفة كلها مختزنة تحت الأرض، باعتقاد آخر هو أن هذه الأموال «مختوم عليها بطلاسم سحرية»[111]. وظل هذا الاعتقاد سائدا على الأقل حتى أواخر العصر الوسيط وبداية الحديث؛ فالكنزيون، حسب الوزان، كانوا يعتقدون أن الرومان عند خروجهم من المغرب دفنوا أشياء نفيسة «لم يتمكنوا من أخذها معهم، وسحروها. (...) ولا يخلو الأمر من أناس يزعمون أنهم رأوا في سرداب ذهبا أو فضة لم يستطيعوا أخذه لكونهم لا يعرفون التعزيم اللازم، ولم يكن لديهم البخور الملائم»[112]. ومن هؤلاء الكنزيين، كنزيو مدينة فاس الذين كانوا يقصدون جبل تغات في فصل الشتاء[113] للتنقيب عن الكنوز، يزعمون أنها «مسحورة، وإنها لا تكتشف ما دام لم يبطل السحر. ومع ذلك،

---

110. أحمد سراج، "ظاهرة الأركيولوجيا السرية بالمغرب"، ص، 16.

111. ابن خلدون، **مقدمة**، ج 2، ص، 913. تبنى ابن الأزرق الفكرة نفسها. **بدائع السلك**، ج 2، ص، 301.

112. الوزان، **وصف إفريقيا**، ج 1، ص، 274.

113. لابد للباحث أن يتساءل لماذا كان هؤلاء الكنزيون يختارون فصل الشتاء وليس فصلا آخر؟ هل الأمر مرتبط بالمطر الذي يلين الأرض المقصودة بالحفر ؟ يهمنا أن اختيار هذا الفصل لبداية التنقيب عن الكنوز ما زال معتمدا إلى اليوم في مناطق سوس، وتفسيره حسب أحد "فقهاء" المنطقة المدة الزمنية الطويلة لليل خلال هذا الفصل مقارنة مع فترة النهار، حيث تبدأ أشغال الحفر مباشرة بعد بداية الساعات الأولى من الليل، وتمتد إلى قبيل آذان الفجر. سعيد بلقاس، "رحلة البحث عن الكنوز"، ص، 12. يضاف إلى هذا ركون الناس إلى منازلهم خلال هذا الفصل اتقاء المطر والبرد مما يعني خلو المجال وتوفر شروط سرية التنقيب على عكس فصل الصيف حيث يظل الناس خارج منازلهم لمدة أطول.

فإنهم منصرفون إلى هذا البحث الذي لا طائل وراءه منذ أزيد من خمسمائة سنة، ويقول الكثير منهم إنهم اكتشفوا بعضا، لكنهم لا يستطيعون أخذها للسبب الذي ذكرناه»[114].

وطبعا، هوجم هذا الاعتقاد كحال سابقيه من قبل العديد من المشككين ومنهم عدد من الفقهاء وغيرهم، ومنهم ابن الأزرق الذي عده هوسا ووسواسا، وأن «الحكايات المتناقلة في ذلك أحاديث خرافة»[115]. وهو نفس موقف مرمول[116].

فما الذي كان يفعله الكنزيون لتجاوز عوائق السحر والطلاسم التي تقف حائلا بينهم وبين الكنوز حسب ادعائهم ؟

إذا فهمنا كلام كربخال جيدا، فإن الكنزيين اهتموا شخصيا بكتب السحر والطلاسم[117]، أو ربما كانت «عند بعضهم نادرة أو غريبة من الأعمال السحرية يموه بها [الباحث عن الكنز] على تصديق ما بقي من دعواه، وهو بمعزل عن السحر وطُرُقِه »[118]. أو كانوا يبحثون «عن سحرة يكتشفون لهم تلك الكنوز»[119].

فما هي الوسائل التي استخدمها الكنزيون أو السحرة المتعاونين معهم لفك السحر المحيط بالكنوز، وبالتالي الوصول إليها حسب زعمهم ؟

114. كربخال، **إفريقيا**، ج 2، ص، 186.

115. ابن الأزرق، **بدائع السلك**، ج 2، ص، 301.

116. كربخال، **إفريقيا**، ج 2، ص، 186.

117. نفسه، ن.ج، ن.ص.

118. ابن خلدون، **مقدمة**، ج 2، ص، 914.

119. الوزان، **وصف إفريقيا**، ج 1، ص، 274.

يستعين الكنزيون في المغرب حاليا بالزوهري للكشف عن الكنوز بما أنه، حسب اعتقادهم، لا يخشى أذى اللجن إن اقترب من الكنز بما أنه من جنسهم. وتم تعريف الزوهري في هامش سابق. مصطفى واعراب، **المعتقدات السحرية في المغرب**، ص، 237.

استعمل الكنزيون والسحرة المتعاونين أساليب مختلفة أثناء عملية التنقيب عن الكنوز من بخور، وتعازيم، وقراءة قرآن، وأدعية، وقرابين، وغير ذلك.

كان استعمال البخور، في الغالب، ضروريا للوصول إلى الهدف المنشود، وجاءت الإشارة إليها أحيانا عمومية[120]، وأخرى مفصلة. ومن هذا النوع الأخير، ما ذكره البوني وابن الحاج من لبان، وصندل أحمر، وسنط المسمى بالربابة[121]. أو ما ذكره ابن خلدون من سندس، ولبان، وميعة، والقسط استنادا إلى ما جاء في قصيدة مشرقية خاصة بتغوير المياه للبحث عن الكنوز، كان يتداولها المغاربة[122]. وقد شكك ابن خلدون في هذه القصيدة، وعدها من «تمويهات المخرقين»[123]. وهناك إشارة أخرى وردت في التقييد الذي بين أيدينا، وإن كان لدينا شك في تأريخه رغم أنه تضمن تواريخ وفاة تعود إلى القرن التاسع الهجري، ذكر فيه من البخور: «شعر الخنزير، وشعر الغزال البوري مع الفسوخ»[124].

120. البوني، **منبع أصول الحكمة**، ص، 275. ابن خلدون، **مقدمة**، ج 2، ص، 913. 917. الوزان، **وصف إفريقيا**، ج 1، ص، 274.

121. البوني، **منبع أصول الحكمة**، ص، 313. ابن الحاج، **شموس الأنوار**، ص، 48.

122. ابن خلدون، **مقدمة**، ج 2، ص، 916-915.

123. نفسه، ن.ج، ص، 916.

تعني المخرقين الكثيري الكذب. وجاء في نسخة أخرى المتخرفين أو المخرفين بدل المخرقين. مقدمة ابن خلدون، ضبط المتن ووضع الحواشي والفهارس، خليل شحادة، مراجعة، سهيل زكار، دار الفكر، بيروت، الطبعة الأولى، 1401 هـ/ 1981 م، ص، 485.

124. محمد استيتو، **الفقر والفقراء**، ص، 227.

يبخر الكنزيون في المغرب اليوم مكان الكنز ببخور مختلفة الرائحة منها الكريهة (قصبر، روث زبل البهائم) والطيبة (مسك عنبر)، وذلك حسب حالة الكنز، بالإضافة إلى أشواك القنفذ، وأوراق بعض النباتات من بينها حبة حلاوة العمياء، والشب وبعض الحبوب الأخرى مع مشيمة حمارة ولدت لأول مرة، وحافر حمار، وحرباء حية بعد تقطيعها إلى أجزاء، والكبريت، ودرقة (قشرة) سلحفاة الماء، وفك كلب. مصطفى واعراب، **المعتقدات السحرية في المغرب**، ص، 242-240. وهناك بخور أخرى مثل اللوبان الذكر والمقال الأزرق وعود الصليب. سعيد بلقاس، "رحلة البحث عن الكنوز"، ص، 12.

والحاصل، أننا نجهل ما إن استعملت نفس البخور في كل الحالات ؟ وهل استدعت كل مرحلة من مراحل التنقيب بخورا معينا ؟ أم أن خصوصية كل كنز كانت تفرض بخورا معينة ؟ المهم، أننا نعرف أن بعض الكنزيين، كانوا يجهلون نوع البخور الملائم للوصول إلى الكنز[125].

أما التعازيم والأدعية المستعملة لاستخراج الكنوز، فإن بعض الكنزيين لم يكونوا يعرفونها[126]. وما نتوفر عليه من إشارات فهو عام[127]، اللهم إذا استثنينا تلاوة بعضهم لسورة الشعراء (226 آية) أثناء عملية التنقيب عن الكنوز، كنوع من التعزيم، حسب ما جاء في التقييد الوحيد الذي نتوفر

---

125. الوزان، **وصف إفريقيا**، ج 1، ص، 274.

126. ابن خلدون، **مقدمة**، ج 2، ص، 914. الوزان، **وصف إفريقيا**، ج 1، ص، 274.

127. ابن خلدون، **مقدمة**، ج 2، ص، 913.

يزعم البوني أنه للكشف عن مكان الكنز يجب كتابة الأضمار «على أربع بيضات بنات يومها، ثم أطلق البخور ورَبِّع المحل [أي رسم مربع حول المكان المشكوك في وجود الكنز فيه]. ثم خذ مجمرة وضعها وسط المكان، واقرأ القسم [يتضمن عبارات ورموز سحرية غريبة] واقفا 21 مرة، فإن البيضات تجتمعن على المحل المقصود». منبع أصول الحكمة، ص، 288. وعن القسم، راجع ص، 289-288.

ويزعم البوني مرة أخرى أنه إذا « أردت فتح كنز، وطرد ما فيه من الموانع، فخذ أربع قطع قرع يابس، واكتب عليها الأسماء، ثم أطلق البخور، وهو لبان مغربي، واقرأ الأبيات 21 مرة، واجعل القطع في أربع أركان المكان، ثم اقرأ الأبيات سبع مرات، فإن الأرض تتزلزل، وتنشق عما فيها من كنوز، وإذا تلوت الأبيات بعد ذلك سبع مرات، وأمرت الخدام بطرد ما في الكنوز من الموانع، فإنهم يطردونه، وإن عصى قتلوه «. نفسه، ص، 313. وعن الأبيات، راجع : ص، 314.

ذكر البوني طريقة سحرية أخرى لمعرفة المكان الموجود فيه الكنز. منبع أصول الحكمة، ص، 279-278.

ذكر بول باسكون أن الكنزيين يستعملون عددا من الطلاسم للعثور على أماكن مضبوطة يحددونها، إلا أنه لم يذكر بدوره تلك الطلاسم.

.Paul Pascon, « Mythes et croyances au Maroc », *op. cit*, p. 75

عليه[128]. وإذا كان هذا التقييد لم يكشف عن سر استعمال هذه السورة بالتحديد، فإن الرجوع إليها، يكشف تضمنها لقصة النبي موسى مع فرعون والسحرة. ولعل هذا هو الذي يربطها بالموضوع. بالإضافة إلى الآيات 220، 221، 222 [هل أنبؤكم على من تَنَزّلُ الشياطين تَنَزّلُ على كل أفاك أثيم يُلْقُونَ السمع وأكثرهم كاذبون]. لكن هذه الآيات، والسورة عامة، ليست الوحيدة التي فيها إشارات إلى الشياطين والسحر والسحرة. لذلك، تبقى هذه السورة بحاجة إلى دراسة سميائية لمعرفة علاقتها بالتعزيم المستعمل في التنقيب عن الكنوز.

ويمكن للدارس أن يتساءل : كيف أمكن الجمع بين السحر والتعزيم والآيات القرآنية أثناء عملية التنقيب على الكنوز، مع أن القرآن نهى عن ممارسة السحر؟ لعل الجواب يكمن، حسب رأي "إدمون دوتي" (Edmond Doutté)، في كون عامة المغاربة يعتقدون أن ليس ثمة فرقا جوهريا بين المقدس والسحري[129].

أما بالنسبة للقرابين التي استعملها الكنزيون، فلم يكن حظنا من المعلومات فيها أحسن من سابقيها، فالحديث عنها يلفه ضباب كثيف[130]، اللهم إذا استثنينا ما جاء عند ابن خلدون بأن قرابين الكنزيين ذات طبيعة حيوانية[131]، وورد في القصيدة السالفة الذكر أن القربان طائر دون تحديد فصيلته أو لونه[132].

128 . محمد استيتو، **الفقر والفقراء**، ص، 227.

ما زال الكنزيون في المغرب المعاصر يوظفون سورة الشعراء في تعازيمهم، لكنهم يوظفون أيضا سورة الكهف، وسورة الملك. وبالإضافة إلى إلقاء الكنزيين لهذه السور طيلة عملية تنقيبهم عن الكنز، فإنهم يكتبونها أحيانا في أوراق، وأحيانا أخرى في صحون. مصطفى واعراب، **المعتقدات السحرية في المغرب**، ص، 242-240.

129. Edmond Doutté, *Magie et religion, op. cit*.

130 . ابن خلدون، مقدمة، ج 2، ص، 913.

131 . نفسه، ن.ج، ص، 917.

132 . ابن خلدون، **مقدمة**، ج 2، ص، 916.

فلماذا استعمل الكنزيون والسحرة المتعاونون معهم هذه البخور، والتعازيم، والقرابين، والأدعية، وتلاوة القرآن ؟

استعمل الكنزيون كل ذلك، حسب زعمهم، لإرضاء حراسها من الجن الساهرين على أسرارها وأختامها[133]، ومعرفة التواصل معهم بلغة الطلاسم السحرية لتحييدهم عن مكان الكنز، «حتى يسلموا مفاتيح الكنوز أو يدلوا على أماكن الثروات ومنابع العيش الرغيد»[134]. وهذه أدلة على أن تقنيات الحفر المادية لم تكن مجدية، وهذا ما سأعود إليه عند الحديث عن نجاح أو فشل الكنزيين في مسعاهم.

وذكر ابن الحاج في كتابه "شموس الأنوار" المراحل التي كان يقطعها إعداد الساحر للحصول على الكنز، والتي تصل في مجموعها إلى 47 يوما، كان يحتاج خلالها إلى طرق خاصة للتعامل مع أصناف وأشكال عديدة من الجن[135] خلال كل مرحلة، حتى يصل إلى سلطان الجن (الطاوس) الذي يُشْرِعُ خدامه الأبواب للحصول على الكنوز، بعد تبخير المكان بأنواع مختلفة من البخور. إثر ذلك، يصبح الأمر سهلا في المرة القادمة، إذ لا يعدو مرتبطا بقراءة التعازيم مرة واحدة، وإطلاق البخور، فتنفتح الأرض وتكشف عن كنوزها[136]!

---

133. يترجم الفولكلور في المغرب الحالي المعتقد السائد بأن الجن حراس الكنوز، إذ يحفل الفولكلور في بعض مناطق الجنوب ببعض الأساطير، « حيث يحكى أن الجن يقومون بحراسة تلك الكنوز الكبرى، يسمع صخبهم الذي يحدثونه كل ليلة خميس، فهم ـ حسب الأسطورة - يغالبون النعاس الذي يداعبهم في أعقاب أسبوع من الحراسة الأمنية، بالرقص الصاخب والعزف على الغيطة (المزمار) والضرب على الطعريجة (الطبلة)، ويتعالى ضجيج حفلهم الأسبوعي الساهر من أعماق نهر تانسيفت الذي يمر قريبا من مراكش».
مصطفى واعراب، **المعتقدات السحرية في المغرب**، ص، 237-236.

134. بنسالم حميش، **الخلدونية**، ص، 84.

135. عن أسماء الجن وأصنافهم، راجع : ابن الحاج، **شموس الأنوار**، ص، 51-48.
.Emil Mauchamp, *La sorcellerie au Maroc*, op. cit, pp. 195-199

136. ابن الحاج، **شموس الأنوار**، ص، 47.==

إن ارتباط التنقيب عن الكنوز بالتعزيم والسحر والفكر الخرافي عموما، دليل على تراجع قيمة العقلانية والعلم خلال المرحلة التاريخية المبحوث فيها ومنه العلم المرتبط باستخراج المعادن[137]. ولعل تعاطي بعض المريدين البحث عن الكنوز لقرينة مهمة على ارتباط هذا الميدان بالفكر الخرافي، مما استدعى انتقاد العلماء وكبار الصوفية لهذا المنحى وفي مقدمتهم محتسب الصوفية أحمد زروق كما سنرى لاحقا.

وكما أشرنا سلفا، فإن ظروف عدم الاستقرار التي عاشها المغاربة خلال العصر الوسيط عامة وأواخره خاصة، وما رافقها من ظروف حياة صعبة بموازاة مع حالات القلق والاضطراب، والشعور بالضعف والعجز في مواجهة مشكلات الحياة ومخاطرها، هيئت أرضية خصبة لانتشار الخرافات والشعوذة والسحر فـ« السحر كما الخرافة (...)، إنما يقوم بتهدئة المخاوف الناشئة عن الاضطرابات (...). وبعبارة أخرى، يمكن القول بأن السحر "يحافظ على مشاعر الخوف من الانحرافات والتوترات المؤذية للمجتمع، فيلعب بذلك لصالح ضبط النظام الاجتماعي (القائم) فهو من الجانب السوسيولوجي، مُطَمْئِن لأنه يمنح للإنسان الاعتقاد في التعرف على الشر وأنه في الإمكان معالجته. ومن الجانب النفساني يلعب السحر دورا تفريغيا بتحديده لمبررات القلق لدى الفرد، وتغييره لاتجاه العدوانية نحو عامل محدد للضرر..." . ومن هنا، الضرورة التي يفرضها السحر على الأفراد باللجوء إليه في مرحلة التحولات العميقة»[138]. والسحر

== لم يقتصر ربط الكنز بالجن على كتب الأوفاق والعلوم الخفية، بل نجد صدى لذلك في كتب المناقب أيضا؛ فقد جاء في ترجمة أبي القاسم بن الصبان، أنه سكن دارا بفاس يقيم فيها الجن، فوقع بينه وبينهم مودة وأنس حتى إنه وضع يوما يده على رأس أحدهم، فأظهر له كنوزا في تلك الدار. وطلب منه الجن المقيمين بها أن يأخذ منها، لكنه لم يفعل. عبد الحق بن إسماعيل بن أحمد البادسي، **المقصد الشريف والمنزع اللطيف في التعريف بصلحاء الريف**، تحقيق، سعيد أحمد أعراب، المطبعة الملكية، الرباط، 1982 م، ص، 70.

137. هذا ما أكده لي الباحث عبد العالي ابن احمد الذي يهيئ أطروحة في **موضوع التعدين بالمغرب الوسيط** في كلية الآداب والعلوم الإنسانية بمكناس.

138. مصطفى واعراب، المعتقدات السحرية في المغرب، ص، 8.

إلى جانب ذلك، برأي علماء الاجتماع والأنتروبولوجيا، نتاج لـ «حاجات طبيعية مشتركة، كامنة في أعماق النفس البشرية المعقدة»[139].

إذا كانت الوسائل المذكورة المستعملة من قبل الكنزيين ومعاونيهم من السحرة ارتبطت بالسحر واالتعزيم، فما هي الأدوات والتقنيات العملية التي اشتغلوا بها في عمليات الحفر والتنقيب ؟ وما هي المخاطر التي جابهتهم أثناء ذلك ؟ وما هو المصير الذي آل إليه عملهم ؟

الراجح جدا، أنهم استعملوا أدوات حادة للحفر، وإن كانت المصادر التي تم الاطلاع عليها لم تشر إلى هذا الموضوع سوى بطريقة غير مباشرة[140]، استعملوا كذلك الحبال[141] للهبوط إلى الآبار والمغارات التي كانوا يعتقدون بوجود الكنوز بداخلها. وبما أن هذه الآبار والمغارات كانت مظلمة، فإنهم استعانوا بالفوانيس لمساعدتهم على الرؤية[142]. ولما كانت بعض الكنوز المخبئة تحمي نفسها بفرشات مائية وأنهار تحت أرضية مطلسمة، حسب اعتقاد الكنزيين، كان لا بد لهم من تغوير المياه (أي تجفيفها) للوصول إليها، وارتبط التغوير بدوره بطقوس سحرية، وكتابة جداول ترمى في الماء، مع المناداة بأسماء الجن، وذكر آيات قرآنية[144]، على أن يتم في بداية الشهر، وتحديدا يوم السبت[145].

139. نفسه، ص، 5.

140. كربخال، **إفريقيا**، ج 2، ص، 280.

141. نفسه، ج 2، ص، 280.

142. الوزان، **وصف إفريقيا**، ج 1، ص، 365. كربخال، إفريقيا، ج 2، ص، 280.

143. ابن الحاج، شموس الأنوار، ص، 52-51.

Edmond Doutté, *Magie et religion, op. cit, p.* 268.

144. ابن الحاج، **شموس الأنوار**، ص، 52-51.

زعم البوني أنه «إذا أردت تغوير الماء المطلسم، فخذ سبع شقفات نيئات، واكتب عليهن الإضمار، وخذ طير حمام أسود واذبحه على الجانب الشرقي من البئر، ألطخ الشقاف بدمه، واعزم على كل شقفة 7 مرات والبخور عمال ثم ارمها في البئر واحدة بعد واحدة، وابعد عن البئر قدر سبعين ذراعا، ثم ارجع تجد الماء غائرا»!

منبع أصول الحكمة، ص، 276-275.

145. ابن خلدون، **مقدمة**، ج 2، ص، 916.

اعترضت عمليات التنقيب والحفر بتقنياتها ووسائلها المختلفة، متاعب ومخاطر عديدة[146]، وصفها ابن الحاج بـ «المهالك الكثيرة» أو «العظيمة»[147]، ونعتها ابن خلدون بالنصب، والمتاعب والجهد الشديد[148]. فقبل أن يصل أحد من الكنزيين إلى مبتغاه إلا وقد أصابته أعطاب كثيرة[149]، وصلت أحيانا إلى درجة الموت؛ ففي عمل الكنزيين بالبئر العميقة ذات المنعطفات الكثيرة الموجودة في جبل مائة بئر، لم يكن يرجع العديد منهم أحياء، إذ كانت تهب أحيانا في الأعماق ريح رهيبة تطفئ الأنوار، ناهيك عن الخفافيش التي كانت تصدم بأجنحتها الفوانيس التي كانوا يحملونها فتطفؤها، وبذلك لم يكونوا «يستطيعون الاهتداء إلى طريق العودة إلى الخارج ويموتون جوعا في قعر البير»[150]. وتوفي بعضهم أيضا بفعل البرد الشديد في قعر البئر[151]. وأكد بعض الكنزيين الذين نزلوا إليها أنهم وجدوا بها «عظاما بشرية قد ابيض لونها، وخمسة فوانيس أو ستة، بعضها قديم وبعضها جديد»[152]. وقد أثبت العلم الحديث أن نسبة الأكسجين تقل كثيرا في أعماق الآبار.

وإذا كانت هذه مخاطر فعلية، فإننا نجهل تلك الناجمة عن طقوس السحر والتعزيم، وهذا النوع من المخاطر، حسب أحد الدارسين، هو «في منتهى الخطورة لما يضمره من مجازفة قد تقود كل من يقدم عليها من دون معرفة عميقة بعلوم "الجداول" والتعزيم، إلى حد الاختفاء عن الوجود عند أي خطإ يقوم به !»[153].

146. عبد الرحمان بن عبد القادر الراشدي المجاجي، **التعريج والتبريج في أحكام المغارسة والتصيير والتوليج**، طبعة حجرية، فاس، دون تاريخ، ص، 111.

147. ابن الحاج، **المدخل**، ج 2، ص، 298.

148. ابن خلدون، **مقدمة**، ج 2، ص، 914-915.

149. ابن الحاج، **المدخل**، ج 2، ص، 298.

150. الوزان، **وصف إفريقيا**، ج 1، ص، 365-366. كربخال، **إفريقيا**، ج 2، ص، 280.

151. كربخال، **إفريقيا**، ج 2، ص، 280.

152. الوزان، **وصف إفريقيا**، ج 1، ص، 366.

153. مصطفى واعراب، **المعتقدات السحرية في المغرب**، ص، 237.

مراعاة للاستعدادات التي كان يقوم بها الكنزيون، والحيل التي كانوا يلجأون إليها، والمخاطر التي كانوا يتعرضون لها أثناء عملهم، لابد أن نتساءل عن مدى توفيقهم في مسعاهم من عدمه ؟

إن تصيد بعض فلتات المصادر، على قلتها، تفيد بأن عمل الكنزيين لم يكن مصيره دائما الفشل، فعبارات من قبيل : «فإذا لم يعثروا»[154]، «وهب أن واحدا حصل»[155]، تفيد احتمالية العثور، والتوفيق في المسعى دون أن تفصح المصادر عن أنواع الكنوز التي كان يتم العثور عليها، ولا كيفية تقسيمها وتصريفها. ويزيد ترجيح وصول بعض الكنزيين إلى مبتغاهم أحيانا، تنصيب أمين لهم في فاس، مع فرضية تأديتهم ضرائب للدولة. ولا غرو، أن ذلك لم يتم إلا إذا كانت لدى الكنزيين مصادر دخل من عملهم[156]، أو من نصبهم على الناس وحيلهم.

ورغم احتمالية عثور الكنزيين على بعض الكنوز، فإن المصادر، التي قدر لنا الإطلاع عليها، أصرت جميعها على فشل عملهم في معظمه، حتى أن ابن خلدون تعوذ من خسرانهم[157]. وأكد أحمد زروق بأن «آلاف ألف لم يحصلوا على شيء، وماتوا بغصته، بل تلفوا في طلبه»[158]. ونحى كربخال المنحى نفسه بالنسبة للكنزيين الذين كانوا يقومون بعملية التنقيب في جبل بني تيزيران، «فقد حفروا في كل مكان تقريبا، ومع ذلك لم يساعدهم الحظ في هذا المكان أكثر من غيره»[159]. لهذا، نصح ابن الحاج الكنزيين، بالابتعاد عن هذا العمل لما فيه من تعب وشغل ذمة » لأن غنيمة المسلم إنما هي براءة ذمته، ومن اشْتُغِلّتْ ذمته، قل أن يسلم»[160].

154 . ابن خلدون، **مقدمة**، ج 2، ص، 914.

155 . المجاجي، التعريج والتبريج، ص، 112-111.

156 . أحمد سراج، "ظاهرة الأركيولوجيا السرية بالمغرب"، ص، 17.

157 . ابن خلدون، **مقدمة**، ج 2، ص، 919.

158 . المجاجي، **التعريج والتبريج**، ص، 112ـ111.

159 . كربخال، **إفريقيا**، ج 2، ص، 250.

160 . ابن الأزرق، **بدائع السلك**، ج 2، ص، 303ـ302.

أما الكنزيون، فلم يكونوا يردون فشلهم وإخفاقهم في العثور عن الكنوز لضعف تقنياتهم، وإنما إلى «الجهل بالطِّلسم الذي ختم به على ذلك المال [أو بعبارة أخرى سوء قراءة الطلسم]، يخادعون به أنفسهم عن إخفاق مطامعهم»[161]. أو إلى عناد حراسها من الجن[162]، أو إلى ما شابه ذلك من التبريرات والادعاءات.

لم يكن فشل الكنزيين في مسعاهم محصورا فقط في عدم التوفيق في العثور عن الكنوز، وإنما أيضا في الأضرار التي أعقبت عمليات الحفر والتنقيب، وما كان يترتب عنها من عقوبات بسبب ما كانت تحدثه عملية التنقيب والحفر عن الكنوز من أعطاب كثيرة، وما كانت تسفر عنه من خسارة بعض الكنزيين وبعض الناس لأموالهم، إما بشكل مباشر أو غير مباشر؛ ذلك أن تلك العملية ألحقت أضرار بالغة بالمباني التي كانوا ينقبون فيها[164]، وصلت أحيانا إلى درجة هدم بعضها[165]. وكان بعض الكنزيين يقترحون «على أصحاب الأراضي أن يصلحوا لهم الضرر الناجم عن جميع الحفريات التي يرغبون في القيام بها»[166].

وإذا كنا نعلم اليوم أن إتلاف الكنزيين لأموال الناس يعرضهم للمتابعات القضائية، كما هو الحال في القضية التي بسطناها في مستهل هذا البحث، فإننا نعتقد أن الأمر خلال مرحلة البحث لم يخل من هذه المتابعات. فلما كانت السلطة في المغرب الأقصى عاجزة عن تنظيم حقل التنقيب عن الكنوز، كما كان الحال في مصر[167]، والأندلس[168]، لجأت في المقابل إلى فرض العديد من

161. ابن خلدون، **مقدمة**، ج 2، ص، 914.
162. بنسالم حميش، **الخلدونية**، ص، 84.
163. ابن الحاج، **المدخل**، ج 2، ص، 298. كربخال، **إفريقيا**، ج 2، ص، 186.
164. ابن الحاج، **المدخل**، ج 2، ص، 298. الوزان، **وصف إفريقيا**، ج 1، ص، 274.
165. ابن الحاج، **المدخل**، ج 2، ص، 298. ابن الأزرق، **بدائع السلك**، ج 2، ص، 302-301.
166. الوزان، **وصف إفريقيا**، ج 1، ص، 274.
167. ابن خلدون، **مقدمة**، ج 2، ص، 919. ابن الأزرق، **بدائع السلك**، ج 2، ص، 301.
168. ابن الأزرق، **بدائع السلك**، ج 2، ص، 302.

العقوبات على الكنزيين[169]، في وقت كانت هي نفسها تقوم بهذه العملية، أو على الأقل بعض الرجالات المحسوبين عليها. غير أن المصادر التي أشارت إلى هذا الموضوع، أحجمت عن الكشف عن طبيعتها، ما عدا عقوبة السجن[170]. ويبدو أن الاختلاف بين مصر والمغرب في هذا الموضوع مرده إلى غنى مصر بالآثار والكنوز التي خلفتها الحضارة الفرعونية. لاسيما أن الفراعنة اشتهروا بدفنهم للذهب والفضة والجواهر واللآلئ مع موتاهم[171]. أما الأندلس، فمن غير الخفي أنه كان لها السبق الحضاري على المغرب في تدبير خططها، وربما لأسباب أخرى نجهلها.

والراجح، أن الكنزيين الذين تعرضوا للعقوبات، كانوا ممن كشف أمرهم أو قدمت في حقهم شكاوى من المتضررين أو وشي بهم. ولما كان الكنزيون أو بعضهم على الأقل يعلمون علم اليقين أن عملهم سيعرضهم لبعض العقوبات، «ومضايقة المطالبات»[172]، فإنهم كانوا يتقربون من أصحاب السلطة «أهل الدنيا» طلبا للجاه الذي يجعلهم بمأمن «من منال الحكام والعقوبات»[173].

وبغض النظر عن العقوبات المادية التي سلطت على الكنزيين، ثمة عقوبات يمكن نعتها بالمعنوية، تجسدت في نظرة الازدراء والاحتقار التي نُظر بها إليهم وإلى عملهم من طرف الفقهاء والصوفية وغيرهم.

فقد اعتبر ابن الحاج الاشتغال باستخراج ما في الأرض من الأموال المدفونة بلوى وابتلاء، وعملا قبيحا[174]. وذمها أحمد زروق «لما فيها من الخطر دينا ودنيا»[175]. ووصف عمل الكنزيين بالترهات، «مما لا يطلبه إلا من قل

169. ابن الحاج، **المدخل**، ج 2، ص، 296. ابن خلدون، **مقدمة**، ج 2، ص، 915. ابن الأزرق، **بدائع السلك**، ج 2، ص، 302.

170. ابن الحاج، **المدخل**، ج 2، ص، 296.

171. ابن خلدون، **مقدمة**، ج 2، ص، 918.

172. ابن الأزرق، **بدائع السلك**، ج 2، ص، 302.

173. ابن خلدون، **مقدمة**، ج 2، ص، 914.

174. ابن الحاج، **المدخل**، ج 2، ص، 294.

175. المجاجي، **التعريج والتبريج**، ص، 111.

دينه، وعقله، ومروءته، وفلاحه. أما قلة دينه، فإنه لا يخلو في الطلب والعمل والتصريف، من محرم أقله عدم البيان أو الدلسة. وأما قلة عقله، فلاشتغاله بمتوهم لا يدركه غالبا، عن محقق، أو مظنون لا يفوته، هي الأسباب العادية. أما قلة مروءته، فلأنه ينسب للدلسة والخيانة والسحر إن ظهر عليه»(176). وبلغ الأمر عند أحمد زروق إلى حد تحذير المريدين من مخالطة الكنزيين، وذلك في رسالة وجهها إليهم جاء فيها : «إياكم ثم إياكم ومخالطة (...) المشتغلين بالكنوز، (...) فإن ذلك بعد من الله تعالى، جالب للفقر، بعيد عن الحق»(177).

لذا، لم يكن غريبا أن ينعت الكنزيون، بـ «ضعفاء العقول»(178)، وأنهم بأعمالهم إنما يخادعون أنفسهم(179). كما نعتوا بالحمقى(180)، والمجانين(181)، و«الرعاع»(182)، و«القوم الشرسين»(183)، و«القوم المتوحشين»(184)، وغير ذلك من النعوت.

176. زروق، **قواعد التصوف**، ص، 74.

177. أبو العباس أحمد بن أحمد بن محمد بن عيسى زروق البرنسي الفاسي، **رسالة من أحمد زروق إلى الفقراء**، إعداد، التخدوخي لحسن، بحث لنيل الإجازة في التاريخ، جامعة محمد الخامس، كلية الآداب والعلوم الإنسانية، الرباط، السنة الجامعية، 1989-1988 م، ص، 41. محمد زروق، **رسالة صوفية**، ص، 16. محمد زروق، **كتاب الجامع لجمل من الفوائد والمنافع**، إعداد، التخدوخي لحسن، بحث لنيل الإجازة في التاريخ، جامعة محمد الخامس، كلية الآداب والعلوم الإنسانية، الرباط، السنة الجامعية، 1989-1988 م، ص، 16. محمد بن ناصر الدرعي، **الأجوبة الناصرية في بعض مسائل البادية**، جمعها عنه محمد بن أبي القاسم الصنهاجي، طبعة حجرية، فاس، دون تاريخ، ص، 164.

178. ابن خلدون، مقدمة، ج 2، ص، 913. 914. المجاجي، **التعريج والتبريج**، ص، 111-112. ابن الأزرق، **بدائع السلك**، ج 2، ص، 301.

179. ابن خلدون، **مقدمة**، ج 2، ص، 914.

180. الوزان، **وصف إفريقيا**، ج 1، ص، 274.

181. نفسه، ن.ج، ص، 365.

182. كربخال، **إفريقيا**، ج 2، ص، 280.

183. نفسه، ن.ج، ص، 186.

184. كربخال، **إفريقيا**، ج 2، ص، 250.

والمتفحص في النظرة التحقيرية إزاء الكنزيين وعملهم، خاصة نظرة الفقهاء والصوفية، يظهر له بأنها نظرة معيارية - أخلاقية، مردها إلى حثهم على التعلق بالآخرة[185]، في وقت اتصف فيه الكنزيون، من وجهة نظرهم، بحب الدنيا[186]. «فمن أحب الدنيا، فهو قَالٍ للآخرة إذ أنهما ضرتان متنافرتان فمهما أقبل الإنسان على إحداهما أضر بالأخرى، ولو لم يكن فيه من الذم إلا ما ورد: "من أحب الدنيا يُنادى عليه يوم القيامة: هذا أحبّ ما أبغض اللّه"[187]»[188]. وحب الدنيا، كما هو معلوم، صفة ذمها العديد من الفقهاء والصوفية على حد سواء، فصاحبها متسم بعدم القناعة، وعدم الإيمان ببركة القليل[189]، وإذا عدمت البركة من الشيء «لو كان ملء الأرض، ما أغنى صاحبه لعَدَمِها منه».[190] إنه الطمع بصيغة أخرى. وفي هذا السياق، جاء عند أحمد زروق ناقلا عن أحد المشايخ قوله:

كان الكنوز وكان الكمياء معا لا يوجدان فدع عنك الطمعا
وقد تحدث أقوام بأمرهما وما أظنهما كانا ولا وقعا

185. ابن الحاج، **المدخل**، ج 2، ص، 294.

186. نفسه، ن.ج، ن.ص.

187. «عن جابر بن عبد اللّه: لو أن عبدا أدى إلى اللّه عز وجل ما افترض عليه ثم كان محبا للدنيا إلا أمر اللّه عز وجل مناديا ينادي على رؤوس الأشهاد يوم القيامة: "إن هذا فلان أحب ما أبغض اللّه"».

أبو النعيم أحمد بن عبد اللّه الأصبهاني (ت. 430 هـ)، **حلية الأولياء**، الجزء السادس، دار الكتاب العربي، بيروت، 1405 هـ، ص، 380. أبو شجاع شرويه بن شهردار بن شيرويه الديلمي الهمذاني (509-445 هـ)، **الفردوس بمأثور الخطاب**، الجزء الثالث، تحقيق السعيد بن بسيوني زغلول، دار الكتب العلمية، بيروت، 1986 م، ص، 363. إبراهيم بن محمد بن سبط بن العجمي أبو الوفا الحلبي الطرابلسي (841-753 هـ)، **الكشف الحثيث**، تحقيق صبحي السمرائي، عالم الكتب، مكتبة النهضة العربية، 1407 هـ/ 1987 م، ص، 125.

188. ابن الحاج، **المدخل**، ج 2، ص، 295-294.

189. نفسه، ن.ج، ص، 294.

190. ابن الحاج، **المدخل**، ج 2، ص، 295.

والحاصل، من وجهة نظر أحمد زروق، أن اللهث وراء طلب الكنوز، سببه «الطمع، وقلة العقل، والتعرض للتلف في غير حاصل. (...) والدنيا عند أهل اللّه أقل أن ينظروا لها. فكيف أن يبذلوا أنفسهم فيها ؟»[191]. ثم إن الاشتغال باستخراج الكنوز، كان يؤدي إلى الاختلاط بـ «من لا يرضى حاله في دينه ودنياه»[192]. وفي ذلك إحالة على الارتباط بالسحر والتعزيم السالفي الذكر. وغير خاف أن صورة السحرة والمعزمين، كانت بدورها متدنية لاعتبارات دينية واجتماعية ليس هذا موضع التفصيل فيها.

وإذا كان الفقهاء والصوفية عموما، نظروا إلى الكنزيين نظرة معيارية - أخلاقية، فإن ابنَ خلدون، وهو واحد من الفقهاء، كانت نظرته إلى عمل الكنزيين أكثر تقدما وعمقا ومنطقا، فهي لم ترتبط بموضوع حب الدنيا، بل تجاوزتها إلى نقد وتسفيه عمل الكنزيين، واعتقاداتهم المؤدية إلى التنقيب عن الكنوز، والاستهزاء بها. ونظرا لأهمية رأيه في الموضوع، نسوق كلامه كاملا في هذا الباب، بعد أن ابتسرناه في فقرات سابقة في هذا البحث. قال: «أما الكلام في ذلك [أي البحث عن الكنوز] على الحقيقة، فلا أصل له في علم ولا خبر. واعلم أن الكنوز وإن كانت توجد لكنها في حكم النادر على وجه الاتفاق لا على وجه القصد إليها، وليس ذلك بأمر تعم به البلوى، حيث يدخر الناس أموالهم تحت الأرض، ويختمون عليها بالطلاسم لا في القديم ولا في الحديث. والركاز[193] الذي ورد في الحديث، وفرضه الفقهاء، وهو دفين الجاهلية، إنما يوجد بالعثور والاتفاق، لا بالقصد والطلب. وأيضا فمن اختزن ماله، وختم عليه بالأعمال السحرية، فقد بالغ في إخفائه. فكيف ينصب عليه الأدلة والأمارات لمن يبتغيه، ويكتب ذلك في الصحائف حتى يطلع على ذخيرته أهل الأعصار[194] والآفاق ؟ هذا يناقض قصد الإخفاء. وأيضا فأفعال العقلاء

191. المجاجي، **التعريج والتبريج**، ص، 112-111.

192. ابن الحاج، المدخل، ج 2، ص، 294.

193. المال المدفون (...) ويقال هو المعدن. ابن خلدون، **مقدمة**، ج 2، ص، 917، هـ، 1094 المحقق.

194. الأمصار في نسخة دار الفكر من **مقدمة ابن خلدون**، ص، 485.

لا بد وأن تكون لغرض مقصود في الانتفاع، ومَنْ اخْتَزَنَ المال، فإنه يختزنه لولده أو قريبه أو من يؤثره. وأما أن يقصد إخفاءه بالكلية عن كل أحد، وإنما هو للبلاء والهلاك، أو من لا يعرفه بالكلية ممن سيأتي من الأمم، فهذا ليس من مقاصد العقلاء بوجه.

وأما قولهم أين أموال الأمم من قبلنا وما علم فيها من الكثرة والوفور، فاعلم أن الأموال من الذهب والفضة والجواهر والأمتعة إنما هي معادن ومكاسب مثل الحديد والنحاس والرصاص، وسائر العقارات والمعادن، والعمران يظهرها بالأعمال الإنسانية ويزيد فيها أو ينقصها. وما يوجد منها بأيدي الناس فهو متناقل متوارث. وربما انتقل من قطر إلى قطر ومن دولة إلى أخرى بحسب أغراضه والعمران الذي يستدعي له. (...) مع أن المعادن يدركها البلاء كما يدرك سائر الموجودات، ويسرع إلى اللؤلؤ والجوهر أعظم مما يسرع إلى غيره، وكذا الذهب والفضة[195]، والنحاس، والحديد، والرصاص، والقصدير ينالها من البلاء والفناء ما يذهب بأعيانها لأقرب وقت. (...) فيحتاج من وقع له شيء من هذا الوسواس، وابتلى به، أن يتعوذ بالله من العجز والكسل في طلب معاشه، كما تعوذ رسول الله ع من ذلك، وينصرف عن طريق الشيطان ووساوسه، ولا يشغل نفسه بالمجالات والمكاذيب من حكايات، والله يرزق من يشاء بغير حساب»[196].

195. هذا غير صحيح فيما يتعلق بالذهب والفضة، فإن من أهم خواص هذين المعدنين أنهما غير قابلين للاتحاد مع الهواء أو الماء أو أي جسم آخر. فهما لا يصدآن ولا تتغير خواصهما الكميائية بتقادم الزمن، ولا يفنيان ويبيدان بالاستعمال. وكانت هذه الخاصية من بين العوامل التي جعلتهما أكثر المواد صلاحية لقياس قيم الأشياء، فاتخذت منهما النقود في الأمم المتحضرة. ابن خلدون، **مقدمة**، ج 2، ص، 918، هـ، 1198 المحقق.

«حجر الذهب هو أبقى جواهر الأرض لا يفسد أبدا، وكلما بقي تحت الأرض صلح وطاب، وكلما دخل النار تخلص وحَسُن». علي بن يوسف الحكيم، **الدوحة المشتبكة**، ص، 63.

196. ابن خلدون، **مقدمة**، ج 2، ص، 917 ـ 919. تبنى ابن الأزرق الرأي نفسه، **بدائع السلك**، ج 2، ص، 301 ـ 303.

قصارى القول، لاحظنا أن أصحاب المصادر غالبا ما سفهوا عمل الكنزيين، وما كانوا يعتقدونه، بل نكاد نلاحظ نقدهم واستهزائهم من كل خطوة كانوا يقومون بها.

وإذا نظرنا إلى موضوع الكنزيين في مجمله، وخاصة مسألة الاعتقاد بوجود الكنوز تحت الأرض، وارتباط التنقيب عنها بالتعزيم والطلاسيم لكي يرفع الجن حراستهم عنها، ثم الاعتقاد بما سيلحق المنقبين من أضرار في حالة عدم إتقان وصفة التعزيم وغير ذلك، يتبين ارتباط موضوع التنقيب عن الكنوز بالمعتقد أكثر من ارتباطه بالواقع. وبذلك، يصبح في رأيي موضوع عقليات بامتياز.